النسمات السابحة

في تدبر الفاتحة

د. محمد عبدالمعطي محمد

الألوكة
www.alukah.net

النسمات السابحة في تدبر الفاتحة

أبـو عمـر د/ محمد عبد المعطي محمد

نظرة موضوعية عامة على الفاتحة

قال الفيروز أبادي في كتابه الماتع بصائر ذوي التمييز 127/1:

اختلف العلماءُ في موضع نزولها. فقيل: نزلت بمكَّة وهو الصحيح، لأَنَّه لا يعرف في الإِسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب. وقيل: نزلت بالمدينة مرّة، وبمكة مرّة. ولهذا قيل لها: السّبع المثانى؛ لأَنها ثُنيت في النّزول.

وأَمّا عدد الآيات فسبع بالإِجماع؛ غير أَنَّ منهم من عدّ {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} دون البسملة؛ ومنهم مَنْ عكس. عدد كلماتها خمس وعشرون.

عدد حروفها مائة وثلاثون وعشرون. وفواصل الآيات (م، ن).

أسماؤها قريبة من ثلاثين: الفاتحة، فاتحة الكتاب، الحمد، سورة الحمد، الشافية، الشفاء، سورة الشفاء، الأَساس، أَساس القرآن، أُمّ القرآن، أُمّ الكتاب، الوافية، الكافية، الصّلاة، سورة الصّلاة، قال الله تعالى "قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين" الحديث، يعنى فاتحة الكتاب، السّبع المثانى؛ لأنها تُثْنَى في كل صلاة، أَو لاشتمالها على الثَّناء على الله تعالى، أَو لتثنية نزولها، سورة الفاتحة، سورة الثناء، سورة أُمّ القرآن، سورة أُم الكتاب، سورة الأَساس، الرُّقْية، لقوله صلى الله عليه وسلم: "وما أَدراك أَنّها رُقْية".

المقصود من نزول هذه السّورة تعليم العباد التيمُّن والتبّرك باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء الأُمور، والتّلقين بشكر نعم المنعم؛ والتوكُّل عليه في باب الرّزق المقسوم، وتقوية رجاء العبد برحمة الله تعالى، والتّنبيه على ترقُّب العبد الحسابَ والجزاءَ يوم القيامة، وإِخلاص العبوديّة عن الشرك، وطلب التوفيق والعصمة من الله، والاستعانة والاستمداد في أَداء العبادات، وطلب الثبات والاستقامة على طريق خواصّ عباد الله، والرَّغبة في سلوك مسالكهم، وطلب الأَمان من الغَضب، والضلال في جميع الأَحوال، والأَفعال، وختم الجميع بكلمة آمين، فإِنها استجابة للدعاء، واستنزال للرَّحمة، وهى خاتَم الرَّحمة الَّتى خَتَم بها فاتحة كتابه. ا.ه.

في الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم

والإستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ..

كما قال المتنبي: [ولا تليق هذه الأبيات بغير الله سبحانه]

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جابره

ومن بديع فهم و تدبر العلامة ابن كثير في تفسيره[1] يقول:

وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَيْ: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُفُّهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ..

وَلِهَذَا أمر تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ لِيَرُدَّهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى، وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رَشْوَةً وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ.. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَعْلَمُ لَهُنَّ رَابِعَةً قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ: " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ " [الْأَعْرَافِ: 199]، فَهَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْبَشَرِ ثُمَّ قَالَ:" وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [الْأَعْرَافِ: 200]..

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ: " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ " [الْمُؤْمِنُونَ: 96- 98]..

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حم السَّجْدَةِ: " وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [فُصِّلَتْ: 34- 36] ا.ه.

والاستعاذة بالله من الشيطان ليست من آيات الفاتحة وإنما هى سنة سنها الله لخلقه عند قراءة القرآن العظيم.. قال ربنا تبارك وتعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)} [النحل: 98 - 100]..

---

[1] تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 29)

قال الطبري (14 / 173): "وليس قوله "فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم" بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أن من قرأ القرآن، و لم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قبل قراءته أو بعدها، أنه لم يضيع فرضا واجبا".

قال ابن كثير: وَالْمَعْنَى فِي الِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ، لِئَلَّا يُلْبِسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتُهُ وَيُخْلِطَ عَلَيْهِ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَلِهَذَا ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ...

جاء في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (11/ 250) ما مختصره:

{فإذا قرأت} أي أردت أن تقرأ {القرآن} الذي هو قوام العمل الصالح والداعي إليه والحاث عليه، مع كونه تبياناً لكل شيء؛ {فاستعذ} أي إن شئت جهراً وإن شئت سراً؛ {بالله}.. سل الذي له الكمال كله أن يعيذك {من الشيطان الرجيم } المطرود عن الرحمة من أن يصدك بوساوسه عن اتباع ربك سبحانه، فإنه لا عائق عن الإذعان لأساليب الشيطان الحسان، إلا ردُّ الرحمن لوساوسه اللعينة، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ولما كان ذلك الأمر بالاستعاذة ربما أوهم تعظيم هذا اللعين الرجيم، نفى الله تعالى ذلك بقوله جواباً لمن كأنه قال: هل له سلطان؟ فقال له: {إنه ليس له سلطان على الذين ءامنوا} بتوفيق ربهم لهم {وعلى ربهم} عليه وحده {يتوكلون }، ثم تبع ذلك ما أفهمه سياق الآية من أن له سلطاناً على غيرهم فقال تعالى : {إنما سلطانه} الذي يتمكن به غاية التمكن بإمكان الله له {على الذين يتولونه} أي تولوه وأصروا على ذلك بتجديد ولايته كل حين {والذين هم} أي بظواهرهم وبواطنهم {به} بالشيطان {مشركون } دائماً لأنهم إذا تبعوا وساوسه، وأطاعوا أوامره فقد عبدوه فجعلوه بذلك شريكاً.. ا.ه. بتصرف يسير.

قال ابن جزي في تفسيره: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ".. الشيطان عدوّ. وحذر الله منه إذ لا مطمع في زوال علة (سبب) عداوته (وهو غيرته وحقده على آدم وولده). وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم. فيأمره أوّلا بالكفر ويشككه في الإيمان فإن قدر عليه وإلّا أمره بالمعاصي. فإن أطاعه وإلّا ثبطه عن الطاعة. فإن سلم من ذلك أفسدها عليه بالرياء والعجب..

والقواطع عن الله أربعة: الشيطان، والنفس، والدنيا، والخلق. فعلاج الشيطان: الاستعاذة والمخالفة له، وعلاج النفس: بالقهر (والترويض على الطاعة واجتناب المعصية)، وعلاج الدنيا:

بالزهد (والنظر إلى نعيم الاخرة وعذابها)، وعلاج الخَلق: بالانقباض والعزلة (عن دنياهم وشرورهم)) ا.ه. بتصرف يسير[2]

(بسم الله الرحمن الرحيم)

القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى ـــ ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ نفس البداية التي أرادها الله تبارك وتعالى ـــ وهي أن تكون البداية بسم الله.

وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }. وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته الإحيائية الإصلاحية في الكون.. هي بسم الله.

ونحن الآن حينما نقرأ القرآن وحينما نمضي في طريق الله وصراطه المستقيم نبدأ نفس البداية.

[باسم الألوهية يقوم الوجود، وإليه يركن كل موجود.. فكل عوالم الكون مألوهة للّه، خاضعة لمشيئته، محفوفة برحمته.

ووصف الألوهية بهاتين الصفتين: « الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ » يدل على أن هذا الوجود إنما هو فيض من رحمانية اللّه ورحمته].[3]

والبسملة ليست سرا عظيما من أسرار القرآن وحسب.. ولكنها أيضا سرٌ عظيمٌ من أسرار الوجود، وسرٌ راقٍ رائقٌ من أسرار حياة المسلم المدرك لحقائق الوجود بعينين تريان بنور الله سبحانه..

فلا خلاف بين المسلمين في بدئهم أمور حياتهم بالبسملة.. لا خلاف بينهم أن بدأ السير والحركة والعمل " بسم الله " هو بركةٌ ونفحة إلهية تفض مغاليق الأمور وتكسر قيودها وتيسر أمورها..

لا خلاف أن الأشياء والأفعال والأشخاص تنفعل حين يترل عليها (اسم الله) البارئ الخالق العليم القدير فتخر الأرواح والأشياء سجداً لعظمة ربها...

إن المسلم يبدأ كل تصرفاته وحركاته " بسم الله" ليضمن ربط حركات الحياة لديه بالمحيي سبحانه، فما من وجودٍ ولا حياة ولا حركة إلا بإذن الله سبحانه.. فإذا انضم إلى مشيئة الله رضاه وبركته ومعونته كانت الحركات والسكنات من الله وبالله وإلى الله تعالى..

وبذلك ترتقي حياة المؤمن لتصبح حياةً ربانية تسير على نور الله سبحانه وهداه..

---

2 تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 47)

3 التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب ، ج 1 ، ص : 18

وهذه هي الحياة التامة وما سواها فحياة الحيوان وحياة النقص والخسران..

وهذا المعنى هو ما يحتاجه المسلم ليسير ويحيا حياةً طيبةً له فيها السند والبركة الربانية العظمى...

قال الطبري في تفسيره ما ملخصه:

إن الله تعالى أدّب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم فعلَّمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، ويسَّر له وَصفه بها قبل جميع أموره المهمة، وجعل هذا الأدب والعلم منه سبحانه لجميع خلقه سُنَّةً يستَنُّون بها، ومنهجاً يتَّبعون نبيه عليه الصلاة والسلام عليها، فبهذا الأدب الرباني افتتاح أوائل كلامهم، ورسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنى قول القائل : "بسم الله"، على كل ما أراد ان يفعل، فكأنه يقول (بسم الله) أمضي وآكل وأشرب وأروح.... إلخ.ا.ه.[4]

{ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41)} [هود: 41]..

عرف المؤمن أن نجاته في الدنيا ليست بالحيل وإن تنوعت وتكاثرت.. فبِاسم الله سلامته، وبتوكله على الله نجاته وراحته، وبتفضله- سبحانه- صلاحه وعافيته..

---

4 جاء في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني (1/ 18) ط. دار القرىن - بيروت - لبنان:

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ (أى عن التي تليها) حَتَّى يَنْزِلَ عليه {بِسمِ الله الرحمن الرحيم} (رواه أبو داود بإسناد صحيح وأخرجه الحاكم في مستدركه).. (قلتُ أى جامعه : ولكن الفاتحة ليس قبلها في المصحف سورة ، فنكون البسملة آية منها(؟!)...

وقد افتتح بها الصحابة كتاب الله، ولهذا تُستحب في أول كل قولٍ وعمل لقوله عليه السلام: «كُلُّ أَمْرٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم فهو أجذم» فتستحب في أول الوضوء لقوله عليه السلام: «لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسم الله عليه» (رواه أحمد وأصحاب السنن من رواية أبي هريرة مرفوعاً) وتستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وأوجبها آخرون، وتستحب عن الأكل لقوله عليه السلام: " قل: بسم الله، وكلْ بيمينك، وكلْ مما يليك" (رواه مسلم في قصة عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم) وتستحب عند الجماع لقوله عليه السلام: "لو أنَّ أحدكم إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقدَّر بَيْنَهُمَا ولدٌ لَمْ يضره الشيطان أبداً" (رواه الشيخان عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم) ..ا.ه.

قلتُ : وهكذا يأمرنا الإسلام ان نمضي في حركة في الحياة " بسم الله"

{اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)} [العلق: 1]..

{فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118)} [الأنعام: 118] ..

وفي مسند أحمد من رواية أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اضْطَجَعَ لِلنَّوْمِ يَقُولُ : " بِاسْمِكَ يا رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا حَفِظْتَ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ "..

فإن سفينة الحياة تجري وترسي بِاسم الله وحده لا سواه.. وهكذا يعلمنا نوح – عليه السلام – حين ركب السفينة وأراد النجاة (بسم الله).. فما كان يخيفه أبدا " وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ ".. لأن من يمشي ويسير في الحياة (بسم الله) لا يخشى شيئا، لأنه استصحب واستعان المحيي المدبر العليم القدير.

إننا في الحقيقة نحيا (بسم الله) لا سواه؛ وما نفعل من شئ إلا بِاسمه سبحانه، فما وجه اعتراضنا أن نسلم حياتنا كلها طوعا لخالقها نرجو معافاته ونبتغي ما يحبه ونجتنب ما لا يرضاه.. فنكون ساعتها تحت رعايته وفي كنف اسمه الذي نبدأ به حركاتنا كلها فنقول ونعيش " بسم الله"..

يقول العلامة السعدي: {بِسْمِ اللَّهِ} أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ {اسم} مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى]..ا.ه.

وهنا نلمح معنى الحياة في ظلال أسماء الله الحسنى.. وما أجملها من حياة! فحين تكدرنا الدنيا نحيا (بسم الله الخبير اللطيف).. وحين نخطأ في حق أنفسنا وفي حق الله نرجع إلى الله (بسم الله التواب الغفور).. وحين نرجو خيراً نبتهل إلى الله (بسم الله الوهاب الرزاق الفتاح).. وهكذا؛ وهو معنىً راقٍ وفقه دقيق لا يناله إلا الموفقون...

هكذا تبدأ حياة المؤمنين، وهكذا تمضي، وهكذا تترقى (بسم الله الرحمن الرحيم).

فالبسملة أدب رباني راقٍ من الله لعباده..

وهى الأساس الأول لعقيدة الإسلام من الأسس التي أرستها هذه السورة الرائعة..

فإن حياة المسلم الحقيقي تبدأ وتسير وتنجو بِاسم الله تعالى..

ما أجمل البدء والسير والوجود بِاسم الله.. إنها المعنى الأهم في ربط حياة المؤمن بخالقه خالق الكون والحياة ومدبرها ومقومها..

إن البسملة تمثل الاستمداد المستمر والدؤوب للهداية والفلاح والنجاة من (الله الرحمن الرحيم).. فالمؤمن حين يقول (بسم الله) فهو يعني: (أبدأ وأسير وامضي وأعمر الأرض وأنور العقول وأعمل الخير بسم الله.. على نور هداه وإرشاده متبرئا من حولي وقوتي في عملي كله ناسبا عملي وقولي لله وحده لا لأحد، فهو بسم الله.. ولأجله سبحانه لا لي ولا لشئ ولا لأحد)..

وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئا من أن يكون باسمي، بل هو باسمه تعالى، لأنني استمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه، فلولاه لم أقدر عليه و لم أعمله، بل وما كنت عاملا له على فرض القدرة عليه، لولا أمره ورجاء فضله..

وإذا كان الناس يفعلون ويعملون من أجل اعتقاداتهم الباطلة الفاسدة ويقولون ويفعلون (بِاسم الشعب، وبِاسم الأمة، وباسم الدولة، وباسم الشيوعية، وباسم المسيح....إلخ).. و مثل هذا

التعبير مألوف عند جميع الأمم، ومنهم العرب، وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمرا ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجردا من نسبته إليه ومنسلخا عنه، يقول: أعمله باسم فلان، ويذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان؛ لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه..

فإن المؤمن يمضي ويقول ويسير (بسم الله)..

وهل هناك أشرف من هذا.. وهل هناك أعز وأرقى للعقل والروح والقلب من الوجود (بسم الله)..

ذلك لأنه هو (الله) الذي له كل الكمال والجلال والجمال.. الخالق الرازق القيوم.. الذي يستحق العبادة ولا يستحقها سواه.. [5]

المتفرد بذاته وصفاته وأفعاله.. لا نِدَّ له فيها ولا شريك ولا شبيه...

** وهو سبحانه (الرحمن الرحيم)..

وهما [اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعَمَّت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيبٌ منها][6].

ووصفه- سبحانه- في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها.. وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن.

ومهما يُختلَف في معنى الصفتين: أيتهما تدل على مدى أوسع من الرحمة، فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا، إنما نخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها.

قال ابن عباس: " الرحمن الرحيم " هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر.

---

5 جاء في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني (1/ 19):

(اللَّهِ) علمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُقَالُ إِنَّهُ (الِاسْمُ الْأَعْظَمُ) لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلى هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} الآيات، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات .. وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وتعالى ولهذا لا يعرف له - في كلام العرب - اشتقاقٌ، فهو اسم جامد (ليس مشتقاً) وقد نقله الْقُرْطُبِيُّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمُ (الشَّافِعِيُّ) و (الغزالي) و (إمام الحرمين) وقيل: إنه مشتقٌّ من أله يأله إلاهةً، أي عبد عبادة، وقيل: مشتقٌّ من وله إذا تحيّر، لأنه تعالى يحار الفكر في حقائق صفاته، وقيل: مشتقٌّ مِنْ أَلِهْتُ إِلَى فُلَانٍ: أَيْ سَكَنْتُ إِلَيْهِ، فَالْعُقُولُ لَا تَسْكُنُ إِلَّا إِلَى ذِكْرِهِ، وَالْأَرْوَاحُ لَا تَفْرَحُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ على الإطلاق دون غيره، قال تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تطمئنُ القلوب}، وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة، وَهُوَ قَوْلُ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ وَأَكْثَرُ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ.

6 تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 39)

قال الطبرى: وذلك أنّ المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميعَ خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال. [7]ا.ه.

إنها الأسماء الاولى التي يطالعنا بها كتاب الله لتكون المصدر الأول لفهم علاقة الخلق بالخالق..

علاقة الله سبحانه بعبيده.. إنها (الرحمة) العامة والشاملة والتامة من الله لعبيده (فهو الرحمن)..

فإذا ما كتب لعبد من عباده رحمته الخاصة كان بهم (رحيما) بمزيدٍ من رحمته في تربيتهم وارشادهم وهدايتهم وتثبيتهم على النور والحق..

ومما قيل في الفرق بينهما أن الرحمن يعني المنعم بجلائل النعم (كبيرها)، والرحيم المنعم بدقائقها (لطيفها الذي يدركه من وفقه الله من الهداية والسداد والتثبيت..

وقيل: الرحمن صفة ذاته سبحانه، والرحيم صفة فعله وإيصال رحمته إلى عبيده..

وقيل الرحمن في الدنيا والرحيم في الآخرة)..

وعلى كل حال فممّا لا ريب فيه أن هناك فرقا في اللفظين يجعلهما يستغرقا كل مناحي الرحمة ومجالاتها وسبلها، وأن هذا ما يفسر حكمة التنزيل في استعمالهما معا.

فهو (الله الرحمن الرحيم)..

وبذلك فإن الله أولانا الشرف الأعلى بأن علمنا وأرشدنا ان نبدأ باسمه قبل كل شئ لتصير الحياة كلها فينا باسم الله وحده لا شريك له...

وهكذا كانت وتظل وستظل أول وأهم الأساسات التي يبني عليها المسلم حياته.. أن تكون لله وباسم الله.. وهو أهم معاني الإسلام وأرقاها..

وهذا معنى قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) } [الأنعام: 162 - 165]..

هذه أولى علامات الطريق المستقيم والمنهج القويم لحياة المسلم أن تكون حياته كلها (بسم الله)..

---

7 راجعه مشكورا في تفسيره تجده مستقصى .

مسألة:-

لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنْ لَفْظَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ هُوَ لَفْظٌ قُرْآنِيٌّ لِأَنَّهُ جُزْءُ آيَةٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: " إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ " [النَّمْل: 30]..

كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي أَنَّ الِافْتِتَاحَ بِالتَّسْمِيَةِ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ ذَوَاتِ الْبَالِ وَرَدَ فِي الْإِسْلَامِ، وَرُوِيَ فِي ذلك حَدِيثُ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِسْمَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ» لَمْ يَرْوِهِ أَصْحَابُ «السُّنَنِ» وَلَا «الْمُسْتَدْرَكَاتِ»، وَقَدْ وُصِفَ بِأَنَّهُ حَسَنٌ..

وَقَالَ جُمْهُورُ العلماء إِنَّ الْبَسْمَلَةَ رَسَمَهَا الَّذِينَ كَتَبُوا الْمَصَاحِفَ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مَا عَدَا سُورَةَ بَرَاءَةَ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي أَنَّهَا كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَذَلِكَ لَيْسَ مَوْضِعَ فَصْلِ السُّورَةِ عَمَّا قَبْلَهَا..

وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْبَسْمَلَةَ هَلْ هِيَ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمِنْ أَوَائِلِ السُّوَرِ غَيْرِ بَرَاءَةَ..

بِمَعْنَى أَنَّ الِاخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ لَيْسَ فِي كَوْنِهَا قُرْآنًا، وَلَكِنَّهُ فِي تَكَرُّرِ قُرْآنِيَّتِهَا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ فِي كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»[8]..

فالمتفق عليه أنها آية من القرآن العظيم بلا شك، ومن الفاتحة – على الراجح للمفسرين؛ افْتَتَحَ بِهَا الصحابةُ كِتَابَ اللَّهِ، ثمّ اختلفوا: هل هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ، لَا أَنَّهَا آيَةٌ؟ عَلَى أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا، وَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.(أفاده ابن كثير).

قال الزمخشري في تفسيره: قرّاء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدأ بذكرها في كل أمر ذى بال، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم اللّه، ولذلك يجهرون بها. وقالوا:

قد أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا (آمين) فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: «من تركها فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب اللّه تعالى».ا.ه.

---

8 التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور(1/ 138).

(الحمد لله رب العالمين)

بهذا الحمد للّه تنطق المخلوقات كلها، فهو سبحانه الذي أوجدها من العدم وأعطاها خلقها بين المخلوقات، وقام عليها مدبرا، وحافظا، « الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْ ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى » (50: طه)، فحق عليها أن تحمده، وتشكر له، وقد لزمها هذا الحق الذي لا انفكاك لها منه، إن لم تؤده اختيارا أدته اضطرارا، وإن لم يفصح عنه ظاهرها نمّ عليه باطنها: « تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ، وَ إِنْ مِنْ شَيْ ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (44: الإسراء)

هذه هى القاعدة الثانية في استلهام النور الإلهي في القرآن.. وهى الأساس الثاني من أساسات البناء الإيماني العظيم للإسلام..

ف{ الحمد} هو المدح المقرون بالمحبة التامة والتعظيم التام، وهذا مناسب جدًّا للوصف الذي جاء بعد الحمد(:رب العالمين= الربوبية)، فإذا كان الله هو من ربَّى العبد وجب عليه أن يحبَّه، وإذا كان هو القادر عليه وجب عليه تعظيمه[9].

الحمد هو الثناء بالجميل اختياراً على واهب الجميل سبحانه، و «الله» علم على الذات الأقدس، واجب الوجود، ذي الجلال والإكرام. وهي جملة خبرية معناها: الشكر لله، وفيها عرفان لله بالفضل والمنّة، كما ورد في الأثر: «يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك».

ورَبِّ الْعالَمِينَ: الرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح والتربية.

والمتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين، أي جميع الخلائق. قال في تفسير الجلالين: «أي مالك جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والدوابّ وغيرهم، وكل منها يطلق عليه عالم يقال له عالم الإنس وعالم الجن، إلى غير ذلك».

والله سبحانه لم يخلق الكون ليتركه هملا، وإنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه، وكل العوالم إنما حفظها وصلاحها برعاية رب العالمين.

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)} [فاطر: 41]

---

[9] ابن القيم - بدائع الفوائد (3/ 132)

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)} [القصص: 71 - 73]..

وهكذا على مدى كثرةٍ من الآيات العظيمة تتبدى الصلة بين الخالق والخلائق صلةً دائمةً ممتدةً في كل وقت وفي كل حالة.

لقد حكى القرآن عن عقائد المشركين، وصور التّخبّط الذي كان يحيط بالبشرية في الجاهلية. فمنهم من اتّخذ أصناما يعبدها من دون الله، ومنهم من جعل الآلهة المتعددة رموزا للذات الإلهية، وقالوا كما ورد في التنزيل: "ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى " [الزمر: 3]. وقال القرآن عن جماعة من أهل الكتاب: " اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ " [التوبة: 31].

وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، تعج بالأرباب المختلفة، بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون.

فافتتح الرب العلى كتابه الخاتم إلى البشرية الحائرة بأن بين طريق ارتفاعهم عن أدران الشرك والتردي في هوة تعظيم ما هو مخلوق مربوب أمثالهم ليتجهوا مباشرةً إلى " الله رب العالمين "..

ربهم الذي خلقهم ورزقهم ورباهم بجليل النعم ودقيقها.. بلا واسطةٍ ولا سلطة لأحدٍ عليهم ولا كهنوت يستعبدهم من عبادٍ أمثالهم.. { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) } [الأعراف: 194، 195].. {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20)} [النحل: 20]..

جاءت الآية لتؤكد عظمة الرب العلى في ذاته وصفاته وأفعاله التي يختص فيها ب"الحمد" وحده فالحمد لله رب العالمين الذي وصلنا به سبحانه في علوه وأمرنا ان ندعوه وحده مخلصين له بلا واسطة حتى إن المؤمنون لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مناجاة ربهم جاءت الإجابة الربانية العظيمة بتنحية كل أحدٍ يقف بين العبد وربه حتى رسول الله – على منزلته عند ربه – فقال ربنا تبارك وتعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) } [البقرة: 186]..

جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار، يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة. والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يخبط في ظلمات وظنون لا يستقر منها على يقين.

ومن ثمّ كانت عناية الإسلام الأولى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التصوّر والاعتقاد الذي يستقرّ عليه الضمير في أمر الله وصفاته، وعلاقته بالخلائق وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين.

وكان من رحمة الله بالعباد إنقاذهم من الحيرة، وإخراجهم من الضلال إلى الهدى بهذا الدين الحنيف بما فيه من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق وسهولة ويسر، وتجاوب مع الفطرة.

لقد فشل العقل الإنساني في أغلى وأعلى صوره الفكرية والفلسفية في الوصول لأبسط المعاني المبثوثة في قوله تعالى " الحمد لله رب العالمين "..

ففي حين يصل (أرسطو) – من كبار أعلام الفلسفة القديمة والمعلم الاول عندهم – إلى أن الله هو المحرك الأول لكل شئ الذي لا يتحرك ولا يتغير.. ثم إن الإلاه عند أرسطو (عقلٌ محض " بلا صفات ولا أسماء يظهر أثرها على مخلوقاته، فلا تعلق له بهذه المخلوقات.. فهو منزه عن علم الكون، ومنفي عنه تدبير العالم، لكونه عقل محض.. إله أرسطو يعقل ذاته ويعلم ذاته ويرى ذاته ولا تعلق له بما سواه من الحوادث (المخلوقات).. فهو إله يعلم الكليات ولا يعلم ما يحدث لخلقه من التفاصيل التي يتعالى عن أن يعلمها.. هذا الإله البعيد عن خلقه الغائب عنهم هو أقصى ما أنتجه العقل البشري من فكر..

ولكن الله تعالى يقرر لنا في أول كلامه العظيم أنه " الله رب العالمين " الخالق لهم الرازق المدبر العليم بهم... {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)} [المجادلة: 7].. يعلم سبحانه ويدبر ويهدي ويسمع ويرى وهو في عليائه – سبحانه – وفوق سمائه.. له صفات الكمال كلها، كما ينبغي لجلاله وجماله، لا يشبه خلقه ولا يشبهه خلقه، وهو كما قال في وصف كماله سبحانه: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.. } [الشورى: 11 – 13].. هذا الاعتقاد الراقي في الإله واجب الوجود تعالى.. وهذا ما رسمه القرآن بحروف من نور في قلوب المؤمنين في أول ما طالع به البشرية من كتابه الخاتم.. ثم وقف سامقاً يصحح للدنيا كلها عقيدتها في الإله الخالق العظيم، وهذه بذاتها نقطة تستوجب الحمد لله رب العالمين...

ولا أحب أن أدع هذا المقام يمر دون أن أذكر كلماتٍ قرأتها لأحد هؤلاء الذين هداهم الله لنور طريقه فأسلموا لله وعرفوا حقيقة فوقية هذا الاعتقاد العظيم الشريف في الله سبحانه يقول

الرجل بما معناه: إن أبواب السماء – في الإسلام – مفتوحةٌ أمام الجميع.. الكل تحت السماء سواء.. " إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".. هكذا بلا واسطة ولا كهنوت ولا حجاب.. لأن السماء عندنا سماءٌ لكل الناس المؤمن والكافر، المطيع والعاصي، البر والفاجر.. الكل يدعو والله تعالى يسمع، فالله ربنا هو رب العالمين....

قال أبو جعفر الطبري في تفسيره: ومعنى (الْحَمْدُ لِلَّهِ): الشكر خالصًا لله جل ثناؤه دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كلِّ ما برَأَ من خلقه، بما أنعم على عباده من النِّعم التي لا يُحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وَغذَاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبَّههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود في دار المُقام في النعيم المقيم. فلربِّنا الحمدُ على ذلك كله أولا وآخرًا. ا.ه.

وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الْحَمْدِ) لِاسْتِغْرَاقِ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْحَمْدِ وَصُنُوفِهِ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا جَاءَ فِي صحيح الأدب المفرد للبخاري عن رفاعة الزرقي قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ".

فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا فَقَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ. اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يحول ولا يزول ».. صدق سيدنا وحبيبنا خير العباد محمد عليه الصلاة والسلام.

فوائد:

بين الحمد والشكر

قال القرطبي: الحمد في كلام العرب معناه: الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس، فهو – سبحانه – يستحق الحمد بأجمعه، والثناء المطلق . والحمد نقيض الذم. وهو أعم من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد، تقول: حمدت الرجل على شجاعته، وعلى علمه، وتقول: شكرته على إحسانه. والحمد يكون باللسان، وأمّا الشكر فيكون بالقلب، واللسان، والجوارح. قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منّي ثلاثة... يدي ولساني والضمير المحجّبا

وذهب الطبري: إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، لأنك تقول: الحمد لله شكراً.

قال القرطبي: وما ذهب إليه الطبري ليس بمرضي، لأن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكرُ ثناءٌ على الممدوح بما أولى من الإحسان، وعلى هذا يكون {الحمد} أعمّ من الشكر.

جاء في أضواء البيان:[10]

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، لم يذكر لحمده هنا ظرفا مكانيا ولا زمانيا. وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية: السماوات والأرض في قوله: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[الآية 18]، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية: الدنيا والآخرة في قوله: {وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ} [الآية70] وقال في أول سورة سبأ: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} والألف واللام في {الْحَمْدُ} لاستغراق جميع المحامد. وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به.

وقوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} الآية.ا.ه.

وفي الحديث الشريف عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: أفضلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدعاء الحمدُ لله (رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله وقال: حسن غريب)..[11]

وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَفْضَلُ مِنْهَا. (يقصد أن يوفق الله العبد لشكره وحمده أفضل من كل النعم)

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ)[12]...

(قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ القرطبي: مَعْنَاهُ عِنْدَنَا أَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا، ثُمَّ أُعْطِي عَلَى أَثَرِهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ (الحمد لله) حَتَّى نَطَقَ بِهَا، فَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَفْضَلَ مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا، لِأَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ وَالْكَلِمَةَ بَاقِيَةٌ، هِيَ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:" وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا" [مريم: 76]. فَصَيَّرَ الْكَلِمَةَ إِعْطَاءً مِنَ العبد، والدنيا أخذا من الله، كَذَلِكَ يَجْرِي فِي

---

10 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى (2/ 2)

11 حسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (3/ 484) برقم (1497).

12 (حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة برقم 3805)

الْكَلَامِ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنَ الْعَبْدِ، وَالدُّنْيَا مِنَ اللَّهِ، وَكِلَاهُمَا مِنَ اللَّهِ فِي الْأَصْلِ، الدُّنْيَا مِنْهُ وَالْكَلِمَةُ مِنْهُ، أَعْطَاهُ الدُّنْيَا فَأَغْنَاهُ، وَأَعْطَاهُ الْكَلِمَةَ فَشَرَّفَهُ بِهَا فِي الْآخِرَةِ[13].

وَرُوِيَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

[والحمد أعمّ من الشكر لأنّ الشكر لا يكون إلّا جزاء على نعمة، والحمد يكون جزاء على نعمةٍ كالشكر، ويكون ثناءً على ذات وأوصاف المحمود ابتداء، كما أنّ الشكر قد يكون أعم من الحمد، لأن الحمد باللسان فقط، والشكر يكون باللسان والقلب، والجوارح.

فإذا فهمت عموم الحمد:علمت أنّ قولك: "الحمد لله" يقتضي الثناء عليه – سبحانه – لما هو عليه من الجلال والعظمة والوحدانية والعزة والإفضال والعلم والمقدرة والحكمة وغير ذلك من الصفات، ويتضمن معاني أسمائه الحسنى جميعها، ويقتضي شكره والثناء عليه بكل نعمةٍ أعطى ورحمةٍ أولى جميع خلقه في الآخرة والأولى.. فيا لها من كلمة جمعت ما تضيق عنه المجلدات.. ويكفيك أن الله جعلها أوّل كتابه، وآخر دعوى أهل الجنة " وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ".

وإن الشكر باللسان هو الثناء على المنعم والتحدث بالنعم، والشكر بالجوارح هو العمل بطاعة الله وترك معاصيه، والشكر بالقلب هو معرفة مقدار النعمة، والعلم بأنها من الله وحده، والعلم بأنها تفضل من الله تعالى لا باستحقاق العبد لها.

واعلم أن النعم التي يجب الشكر عليها لا تحصى، ولكنها تنحصر في ثلاثة أقسام:

نعم دنيوية: كالعافية والمال، ونعم دينية: كالعلم، والتقوى. ونعم أخروية: وهي جزاؤه بالثواب الكثير على العمل القليل في العمر القصير.

والناس في الشكر على مقامين: منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه خاصةً، ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم.

والشكر على ثلاث درجات: فدرجات العوام: الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن مشاهدة النعمة بمشاهدة المنعم سبحانه..

قال رجل لإبراهيم بن أدهم:من خير الناس ؟ قال: الفقراء (أى الزهاد).. إذا مُنعوا شكروا. وإذا أُعطوا آثروا على خلق الله أنفسهم.

---

[13] راجع تفسير القرطبي عند تفسيره آية الحمد من الفاتحة.

ومن فضيلة الشكر أنه من صفات الحق سبحانه، فإنّ من أسماء الله: الشاكر والشكور،)ا.ه.[14]

وفي التعبير ب" الحمد لله رب العالمين" من البراعة الأدائية والتركيب البلاغي ما يعجز عنه اللسان.. فأنت تجد استغراق كل المحامد،بكل أنواعها وأجناسها في معنى (ال) التي هى للاستغراق عند أهل اللغة..

ثم إن هَذِهِ الْجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ وَلَكِنَّهَا اسْتُعْمِلَتْ لِإِنْشَاءِ الْحَمْدِ..

فَأَمَّا مَعْنَى الْخَبَرِيَّةِ فَهُوَ إِثْبَاتُ أَنَّ الثَّنَاءَ الْجَمِيلَ فِي أَيِّ أَنْوَاعِهِ تَحَقُّقٌ، فَهُوَ ثَابِتٌ لَهُ تَعَالَى وَرَاجِعٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِكُلِّ مَا يَحْمَدُ عَلَيْهِ الْحَامِدُونَ فَصِفَاتُهُ أَجَلُّ الصِّفَاتِ، وَإِحْسَانُهُ عَمَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، وَلِأَنَّ جَمِيعَ مَا يَصِحُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْحَمْدُ مِمَّا سِوَاهُ فَهُوَ مِنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، إِذْ هُوَ مَصْدَرُ الْكَوْنِ كُلِّهِ، فَيَكُونُ لَهُ ذَلِكَ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِراً. وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ أَيَّ حَمْدٍ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَحْمُودٍ مَهما كان لجميلِ فعله فَهُوَ لِلَّهِ تَعَالَى أولا، سَوَاءٌ لَاحَظَهُ الْحَامِدُ ذلك أَوْ لَمْ يُلَاحِظْهُ.

وَأَمَّا مَعْنَى الْإِنْشَائِيَّةِ فَهُوَ أَنَّ الله يعلِّم عباده حمده ليهديهم لأعظم أنواع العبادات المقربة من رب الأرضين والسموات، فكأن المعنى (قولوا الحمد لله رب العالمين).. فقَوْله سبحانه: {الْحَمد لله} حمد نَفسه، وَأمر الْعباد أَن يحمدوه.

وبذلك تستقصي الجملة بأسلوبها الثابت ثبوت الجبال والمستغرق الشامل..

تستقصي الحقيقة الثانية الأهم في حياة المسلم بعد (البسملة)..

فإذا كان لزاما على المسلم أن يعلم أن الحياة كلها والوجود كله يسير (بسم الله الرحمن الرحيم)..

فإن عليه أن يوقن أن الحمد بكل صوره وفي كل وقت وحين هو لله تعالى وحده على ذاته وصفاته وأفعاله.. وأن يكون شعاره في كل وقت وحين وتحت كل الظروف (الحمد لله رب العالمين)...

قال في الظلال: والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله.. فإن وجوده ابتداءً ليس إلا فيضاً من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء.

وفي كل لمحةٍ، وفي كل لحظة، وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان..

---

14 تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 64)

ومن ثَم كان الحمد لله ابتداءً، وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد (عقيدة المسلم الثابتة في الحس المتنامية في الفعل)[15]: «وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ... ». ومع هذا يبلغ من فضل الله– سبحانه– وفيضه على عبده المؤمن، أنه إذا قال: الحمد لله. كتبها له حسنة ترجح كل الموازين.ا.ه.

فمن حديث أنس بن مالك – رضى الله عنه – كما في المسند يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأُكْلَةَ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَ اللهَ عَلَيْهَا ".

" الحمد لله رب العالمين"

قال السعدي في تفسيره: والرب، هو المربي جميع العالمين –وهم من سوى الله– بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء. فما بهم من نعمة، فمنه تعالى. وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فدل قوله {رَبِّ الْعَالَمِينَ} على انفراده سبحانه بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار. ا.ه.

أقول: والحقيقة أن هذه الآية العظيمة تضع بين أيدينا ونصب أعيينا صورة من صور التوحيد ووجها من وجوهه التي لا يكتمل إلا بها.. فأهل السنة متفقون أن التوحيد له وجهان لا يتم إلا بهما: التوحيد العلمي الخبري، والتوحيد القصدي العملي..

فمن التوحيد العلمي الخبري: توحيد الربوبية أي توحيد الله رباً خالقًا رازقاً مدبراً قيوماً على خلقه.. قال العلامة ابن أبي العز: وَهَذَا التَّوْحِيدُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَهُوَ الْغَايَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى نَقِيضِهِ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، بَلِ الْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِهَا مَفْطُورَةً عَلَى الْإِقْرَارِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، كَمَا قَالَتِ الرُّسُلُ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة إِبْرَاهِيمَ: 10] ا.ه.[16]

---

[15] ما بين القوسين هو من كلامي استبدلته بكلام سيد قطب رحمه الله ضبطا للألفاظ والتعبيرات في إطار التعبير السليم الذي لا تشتته نزعة سيد قطب الأدبية التي تجعل عباراته أحيانا تتجافاها روح العلم والاعتقاد الصحيح.. وستجد هذا في كثير من نقولاتي .. فإن الامر دين.." وما أبرئ نفسي ...".

[16] شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: 79).

فإذا علمته كذلك وعلمت أن له أسماءاً حسنى وصفاتٍ علياء سمى نفسه بها وعرفه بها وبلغها عنه خير خلقه من أنبيائه ورسله.. لا يشبه خلقه في صفاته، ولا تشبهه خلقه، نثبت ما جاء منها وعلمناه بطريقٍ صحيح بلا تعطيل ولا تأويل ولا تمثيل.. وهذا هو توحيد الله في أسمائه وصفاته.. وهو وتوحيد الربوبية فرعا توحيده العلمي الخبري الاعتقادي...

والذي يلزم له لكى يصح استقصاء توحيده سبحانه بالعبادة – بكل معانيها – والقصد والعمل.. وهو التوحيد القصدي الطلبي العملي.. أو توحيد العبادة.

قال العلامة ابن القيم –رحمه الله–: " وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح; كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأول تنزيل السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: ما تضمنته سورة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، وقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.. وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها. وأول سورة المؤمن ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن. بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، شاهدة به داعية إليه.

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم". ا.ه.

يقول العلامة ابن أبي العز ما ملخصه:

(والتَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحِدٌ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [سورة لُقْمَانَ: 25].

{قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الْمُؤْمِنُونَ: 84، 85]..

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُشَارِكَةٌ لِلَّهِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ، بَلْ كَانَ حَالُهُمْ فِيهَا كَحَالِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَمِ مِنَ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ، تَارَةً يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ تَمَاثِيلُ قَوْمٍ صَالِحِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيَتَّخِذُونَهُم شُفَعَاءَ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا كَانَ أَصْلَ شِرْكِ الْعَرَبِ..

قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ. {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [سورة نُوحٍ: 23]..

وَقَدْ ثَبَتَ فِي "صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ"، وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِعَيْنِهَا صَارَتْ إِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، ذَكَرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَبِيلَةً قَبِيلَةً..

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسْدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ؟ "أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ"..

وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ" عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائهم مساجد".. يحذره مَا فَعَلُوا..

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا..

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ذُكِرَ فِي مرض موته كنيسة بأرض الحبشة، وذكر مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: "إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قبره مسجدا، وصورا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وَفِي "صَحِيحِ مُسْلِمٍ" عَنْهُ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: "إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ".....

فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الْمَطْلُوبَ هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ1، الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة الروم: 30]....

فَلَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، الَّذِي يُقِرُّ بِهِ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَيَفْنَى فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، وَيَجْعَلُونَهُ غَايَةَ السَّالِكِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ وَيَتَبَرَّأْ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ كَانَ مُشْرِكًا مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دليلا على الثاني، إذ كانوا يسلمون [في] الْأَوَّلَ، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إلا الله وحده، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى؟... وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: 21]...، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.)ا.ه.[17]

قلت:

وهكذا يضع القرآن العظيم في أول احتكاكه المباشر مع حياة المسلم في كل الأزمان والأمكنة القواعد الأولى لإصلاح الحياة والأحياء على أسس ربانية نورانية.. وذلك بتصحيح علاقة هذا المخلوق الضعيف الذي كرمه الله تعالى فخلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شئ، ثم شرفه بمعرفته سبحانه.. يصحح الله له تلك العلاقة بينه سبحانه وبين عباده والتي يفسدها الشيطان الحسود بين آن وآخر.. لينطلق بعدها هذا الإنسان على نور التوحيد يصلح ويغرس ويبني ويعمر...

وسورة الفاتحة قد استوفت كل هذه الكليات من المعاني في طياتها فكانت النموذج القرآني الكامل لتعليم العباد العلم الأرقى في حياة الإنسانية (علم التوحيد) الذي به يستنقذ الله تعالى الإنسان من الانحطاط المهين والارتكاس اللعين في عبودية غير الله من البشر والشجر والحجر... وهذا هو المعنى الذي تفهمه جيدا الرعيل الأول من أفاضل المؤمنين بالإسلام.. جيل الصحب المحمدي الفريد... ونحن نقر لهم بهذا الفهم الثاقب لنعمة التوحيد في أقوالهم وأفعالهم..

---

[17] شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: 83)

اقرأ معي ما قاله جعفر بن أبي طالب – رضى الله عنه – للنجاشي حين سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟

فَقَالَ لَهُ جعفر: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَ عَفَافَهُ،

" فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ "، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ...)[18]..

قلت: هذه هى رسالة الاسلام في الإصلاح.. وهذا ما سوف يواجهه المصلحون من خفافيش الظلام في كل وقتٍ طالما أنهم يهددون ظلامهم بنور الله تعالى..

و إن الصحب الكريم فهموا أن أكبر الأدواء في الحياة هو الشرك.. وأن أى اصلاح للمجتمع لا ينبني على إزاحة كل صور ومعاني الشرك من الحياة هو إصلاح محوط بالفشل، وربما كان إفسادا في صورة الاصلاح..

لذلك بدأ (جعفر رضى الله عنه) حديثه عن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام بأنها رسالة للتوحيد أولا ثم الإصلاح الخلقي والاجتماعي بعد ذلك.. فارتباط البشرية الصحيح بالله تعالى هو أساس كل إصلاح ناجح...

ولذلك كان شعار المصلحون على منهاج النبوة (كلمة التوحيد أولا ثم توحيد الكلمة)..

لأن مجرد الجمع والحشد لأمة الاصلاح تحت قناعاتٍ وضلالاتٍ شتى في المنهج لا يجمعها نور التوحيد الصحيح الكامل..

هذا التجميع هو الضرر والتفرق بعينه، وليس ما يدعيه المضللون من فُرقةٍ (مزعومةٍ) تضع الفئة الصحيحة الايمان والعقيدة بعد تنقيحها في مكانها الصحيح من الافتراق عن الفئات الضالة المنحرفة عن خط الأنبياء في المنهج والمسيرة.. وبالطبع فلن يكون التمكين إلا (على منهاج النبوة).

---

[18] مسند أحمد ط الرسالة – حديث جعفر بن أبي طالب (3/ 266).

هذه هى سنة الله في التمكين لعباده المؤمنين " سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا".

لطائف قرآنية:

افتتح ربنا سبحانه خمس سور في القرآن بهذا المفتتح وهذا الاستهلال الرائع " الحمد لله "... ففى أم القرآن (الفاتحة): "الحمد لله رب العالمين ".. وفي سورة الأنعام: "الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ".. وفي سورة الكهف: "الذي أنزل على عبده الكتاب ".. وفي سورة سبأ: "الذي له ما في السماوات وما في الأرض ".. وفي سورة فاطر: "فاطر السماوات والأرض ".

فما وجه المناسبة بين هذا الاستهلال واختلاف التعقيب بعده مع السورة التي ورد فيها؟

ذكر السيوطي في الاتقان:

فِي تَفْسِيرِ الْخُوَيِّيِّ يقول: ابْتُدِئَتِ الْفَاتِحَةُ بِقَوْلِهِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فَوَصَفَ بِأَنَّهُ مَالِكُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ.. وَفِي الْأَنْعَامِ وَالْكَهْفِ وَسَبَأٍ وَفَاطِرٍ لَمْ يُوصَفْ بِذَلِكَ؛ بَلْ بِفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ صِفَاتِهِ، وَهُوَ خلق السموات وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ فِي الْأَنْعَامِ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ فِي الْكَهْفِ، وَمِلْكِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ فِي سَبَأٍ، وَخَلْقِهِمَا فِي فَاطِرٍ.. لِأَنَّ الْفَاتِحَةَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَمَطْلَعُهُ فَنَاسَبَ الْإِتْيَانَ فِيهَا بِأَبْلَغِ الصِّفَاتِ وَأَعَمِّهَا وَأَشْمَلِهَا] انتهى.

أقول: لقد تناسب هذا الاستهلال الرائع بالفعل مع موضوع السورة التي ورد فيها فجاء الاستهلال مكتملاً مع معاني السورة متناسقا بكل دقةٍ وبراعةٍ يؤكدها ما عقّبت به الآية بعد " الحمد لله "...

ففي أم الكتاب كان أول القرآن وفاتحته فناسب ذلك افتتاحها بالحمد لله الذي يربُّ العالمين فيصلحهم ويربيهم بنعمه وهداياته المتعددة النابعة من رحمانيته العامة الشاملة..

وفي سورة الأنعام التي يتمحور مضمونها العام حول دلائل التوحيد وإثباته لله تعالى وحده ودحض شبه المشركين ومناقشتهم.. فناسب ذلك البدء بالحمد وذكر الدليل الأول على وحدانية الله تعالى وهو الخلق الذي يشهد له سبحانه ببديع الصنعة وبيان ما نصبه من نور الحق وما يدحضه من ظلمات الباطل..

وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذكر ذى القرنين وهى مما سأله المشركون أو اليهود لرسول الله يطلبون تعجيزه.. فكان القرآن سنده الرباني العظيم في إثبات أنه الحق من رب العباد لا عوج فيه ولا مطعن لبشر.. فناسب ذلك الحمد لله على ما أنزله على عبده ليكون معجزته الكبرى وهدايته العظمى التي لا يقوى أمامها طعن أو اعتراض.

وأما سورة سبأ فإن فيها قصة سبأ فلما تضمنت ملك سبأ وملكتها بلقيس، و ما تضمنته من قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله سبحانه وتعالى من الملك؛ من تسخير الجبال والطير والجن وإلانة الحديد.. و لم يجتمع مثل هذا في سورة سواها.. افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السماوات والأرض وما فيهما وأنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة، وأن الملك كله لله يهبه لمن يشاء؛ فقال تعالى: "الحمد لله الذى له ما في السماوات وما في الأرض ".

وأما سورة فاطر فإن الله تعالى بيّن فيها من صفات ربوبيته ودلائل وحدانيته من إبداع السماوات والأرض، ومن خلق عمّار السماوات من الملائكة على عظيم خلقهم، وجعلهم رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وإمساكه السماوات والأرض أن تزولا وغير ذلك من

هذه الأوصاف العلية.. فناسب ذلك تعظيم الله وحمده على عظمة ذاته وهو الفاطر الخلاق البديع العظيم فقال ربنا "الحمد لله فاطر السماوات والأرض ".

فتبين من هذا عظمة القرآن في مناسبة كل افتتاح لموضوع السورة المفتتحة به دلالة على هذا الاتساق الشريف الدقيق بين روعة الافتتاح ومناسبة المعاني الكلية لسور هذا القرآن العظيم..

وهذا من وجوه الإعجاز القرآنية العزيزة التي لا يوفق لها من عباد الله إلا المتدبر العاشق للقرآن..

وردت لفظة " الحمد" في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة.. وفي كل مرة معها (لام) الاختصاص التي تشير أن الحمد لله وحده.. فمرة تجئ (له الحمد) ومرة (الحمد لله)..

وورد قوله تعالى " الحمد لله " في القرآن كله واحداً وعشرين مرةٍ..

وورد قوله تعالى " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " هكذا بلفظه وتمامه أربع مرات...

في الفاتحة.. وبينا مناسبته في موضعه..

وفي سورة يونس: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)}

وفي سورة الزمر: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75) }..

وفي سورة غافر: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) }..

وهنا نستقرأ أن الحمد ورد في الفاتحة تقريرا لحقيقة الوجود العليا أن الحمد لله في ذاته وصفاته وأفعاله فهو لله رب العالمين وحده.. وتعلمنا آية سورة غافر أن يعيش المهتدون المؤمنون على نور هذه الحقيقة يملأ حياتهم كما ملأ الحمد السموات والأرض وما بينهما.." هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "..

فالذين يعيشون في كنف هذه الحقيقة يصيرون إلى الفلاح وعظيم الثواب الذي يغمر قلوبهم وعقولهم فلا ينفكون تكون.."

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "..

ومن خاب سعيه فالخسران المبين.. والله سبحانه له الحمد ابتداءاً في ذاته وصفاته وأفعاله.. وله الحمد في الخلق، وفي العناية والرعاية والهداية، وفي الجزاء والقضاء، فله الحمد في الأولى والآخرة.. " وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "..

فمن يستقرأ ما وردت فيه " الحمد لله رب العالمين " يعلم يقيناً أن "الحمد لله " بدايةٌ وطريقٌ وغاية...

وأن الحمد يجب أن يكون في حياة المسلم منهج حياة وسبيل نجاة...

" الرحمن الرحيم "

استفاضة رحمانية اللّه، وشمول رحمته، يجدها كل موجود في نفسه، وفيما حوله، ولهذا كان حمد اللّه واقعا بين هاتين الصفتين، كأنه تعقيب عليهما أولا، وكأنهما تعليل له ثانيا.

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} هما وصفان لله تعالى، واسمان من أسمائه الحسنى، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، و الرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وعلى هذا أكثر العلماء..

وقد أشار تعالى إلى هذا الذي ذكرنا حيث قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ}، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته. قاله ابن كثير.

ومثله قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَن}؛ أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير، وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء. ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ} إلى قوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، وقال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} فخصهم باسمه الرحيم.... ا.ه.[19]

وقيل: معنى {الرحمن}: المنعم بجلائل النعم، ومعنى {الرحيم}: المنعم بدقائقها.

ولفظ {الرحمن} مبنيّ على المبالغة، ومعناه: ذو الرحمة التي لا نظير له فيها، لأن بناء (فعلان) في كلام العرب للمبالغة، فإنهم يقولون للشديد الامتلاء: ملآن، وللشديد الشبَع: شبعان.

---

[19] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة الشنقيطي (2/ 3).

قال الخطّابي: ف {الرحمن} ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمّت المؤمن والكافر.

و {الرحيم} خاص للمؤمنين كما قال تعالى: {وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً} [الأحزاب: 43].

[فهو تعالى "الرحمن" بالمؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة... فبرحمته خلقهم ورباهم بنعمه الظاهرة والباطنة وأرسل إليهم الرسل والكتب لهدايتهم إلى الحق؛ هذا في الدنيا، وفي الآخرة عمهم بعدله وفضله فحاسب المسئ وجزى المحسن فله الحمد في الأولى والآخرة سبحانه.. وأما ما أشير إليه من خصوص رحمته بالمؤمنين في الدنيا والآخرة باسمه " الرحيم" فبرحمته هدى الذين سبقت لهم السعادة إلى طريقه في الدنيا، وبرحمته وفضله جزاهم أحسن الجزاء على أعمالهم التي وفقهم إليها بمنته وجوده سبحانه]..[20]

وقال بعض العلماء:

(صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة، الرحيم:

صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه.

ونلاحظ أن كلمة الرحمن لم تذكر في القرآن، إلا وقد أجريت عليها الصفات، كما هو شأن أسماء الذات.

قال تعالى: الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) [الرحمن]، الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (5) [طه].

أما «الرحيم»، فقد كثر استعمالها وصفا فعليا، وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (143) [البقرة] ووَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (43) [الأحزاب] و وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) [يونس]. كما جاءت الرحمة كثيرا على هذا الأسلوب وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [الأعراف: 156] يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ [الكهف: 16].

ف «الرحمن»: اسم الله يدل على قيام الرحمة بذاته سبحانه، و «الرحيم» صفة تدل على وصول هذه الرحمة إلى العباد.

تقول: فلان غني بمعنى: أنه يملك المال، وفلان كريم بمعنى أنه ينقل المال إلى الآخرين.).[21]

وأما عن تكرار " الرحمن الرحيم " وقد ذكرت في البسملة.. يقول العلامة الفيروز أبادي[22]:

---

20 أفاده الإمام الطبري في تفسيره.

21 الموسوعة القرآنية خصائص السور المؤلف: جعفر شرف الدين ، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري (1/ 5) ، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ، الطبعة: الأولى - 1420 هـ.

22 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 129/1بتصرف يسير.

وفى تكراره لمن جعل البسملة من الفاتحة أقوال:-

قيل: كرّر للتَّأْكيد (على معنى الرحمة العام والشامل).

وقيل: كُرِّر لأَن المعنى: وجب الحمد لله لأَنه هو الرَّحمن الرَّحيم.. (فكانت رحمانيته سبباً وجيهاً لدوام حمده).

وقيل: إنما كُرِّر لأَن الرحمة هى الإِنعام على المحتاج وقد ذُكر في الآية الأَولى المنعِم في قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) و لم يذكر المنعَم عليهم، فأَعادها مع ذكرهم، وقال: (ربِّ العالمين، الرحمن بهم أَجمعين الرحيم بالمؤمنين خاصَّة يوم الدين، ينعم عليهم ويغفر لهم).

وقيل: لَمَّا أَراد ذكر يوم الدين لأَنه مِلكه ومالكه، وفيه يقع الجزاءُ، والعقاب، والثواب وفى ذكره يحصل للمؤمنين مالا مزيد عليه: من الرعب والخشية، والخوف، والهيبة، فما بال غيرهم.. قدَّم عليه ذكر الرَّحمن الرحيم تطميناً له، وتأميناً، وتطييباً لقلبه، وتسكيناً، وإِشعاراً بأَن الرَّحمة سابقة غالبة، فلا ييأَس ولا يأْسى فإِن ذلك اليوم – وإِن كان عظيماً عسيراً – فإِنما عُسْره وشِدّته على الكافرين؛ وأَمَّا المؤمن فبَيْن صفتى الرَّحمن الرَّحيم من الآمنين ا.ه.

قلت: وأياً ما كان من محاولة العلماء بيان حكمة تكرار " الرحمن الرحيم " هنا كآيةٍ مستقلةٍ مع ذكرها في البسملة.. فإن الواضح أن الله سبحانه أراد التأكيد للناس مرةً ثانية على مضمون علاقته بعباده.. وخصوصا في القرآن الكريم الذي هو دستور حياة المؤمنين.. بأن هذه العلاقة هى أولاً وأخيراً علاقة الرحمة العامة الشاملة.. فمن أرادها في الدنيا والآخرة فليتبع هذا القرآن الذي هو بتعاليمه ومواعظه رحمة للمؤمنين..

فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه.. يخلقهم ويرزقهم ويمهلهم ويرسل لهم الرسل بالهدايات ويحلم عنهم.. وهذه رحمة عظيمة..

واقرأ الحديث القدسي لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده.. يقول الله عز وجل: " ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادي السماء تقول يا رب إئذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم؛ فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يا رب إئذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول الجبال يا رب إئذن لي أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك. فيقول الله تعالى: دعوهم دعوهم لو خلقتموهم لرحمتوهم إنهم عبادي فإن تابوا إلي فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم " رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ".

والله قابل للتوبة من عباده المخطئين الضالين، بل هو سبحانه يدعو عباده للرجوع والتوبة إليه، فهو تعالى {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} [غافر: 3].. وهو يدعو عباده فيقول لهم {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا } [هود: 3].. ويقول سبحانه {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)} [هود: 90].. وهذه رحمة أخرى عظيمة..

إذن ففي الفاتحة تأتي {الرحمن الرحيم} بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه، فهو يمهل العاصي ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه.

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه. وهذه رحمة أخرى تستوجب الحمد و الشكر.

روى البخارى ومسلم وغيرهما عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: " لما قضى الله الْخلق - وَفِي رِوَايَة مُسلم: لما خلق الْخلق، كتب فِي كِتَابه، فَهُوَ عِنْده فَوق الْعَرْش: إِن رَحْمَتِي تغلب غَضَبِي " وَفِي رِوَايَة الْبُخَارِيّ: " غلبت غَضَبِي ".

وَأخرجه الْبُخَارِيّ من طريق آخر فيه قَالَ: إِن الله لما قضى الْخلق كتب عِنْده فَوق عَرْشه: إِن رَحْمَتِي سبقت غَضَبِي ".

وهكذا تتوالى الرحمات التي يحيط بها وصفه تعالى بالرحمن الرحيم في أول ما يطالعنا من كتابه العظيم.. لبيان أن أول ما يعاملنا الله تعالى به من صفاته وأسمائه هو (الرحمة) العامة والخاصة وكل له في الرحمة نصيب، وقد فاز من حصّل أسباب رحمته العامة والخاصة..

فإن هذه البداية العظيمة بالرحمة في (بسم الله الرحمن الرحيم).. والتي تتكرر وتتأكد كآية مستقلة تصف " رب العالمين " بأنه " الرحمن الرحيم ".. توحي بأن كل ما يتوالى من كلام الله بعد ذلك في كتابه هو من معين الرحمة الربانية العظيمة ينهل.. قال ربنا تبارك وتعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) } [يونس: 57 - 59]..

ولعل هذا هو السر الكريم لوصف كلام الله وهدايته لخلقه في القرآن بالهدى والرحمة تسع مرات في كتابه الكريم.. {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) } [النحل: 64]..

ومما يؤكد هذا المعنى ان اسم الله تعالى " الرحمن " هو الإسم الوحيد في أسمائه الحسنى الذي جعله علماً عليه سبحانه، يصفه بباقي أسمائه ويسند إليه أفعاله سبحانه.. بل ويجعل قريناً لاسم الذات العلية " الله".. وهذه ميزات لا تجدها لغير إسمه تعالى " الرحمن "...

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)} [الفرقان: 59]

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)} [طه: 5]

{ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الإسراء: 110]

فأنت ترى أن الله تعالى وصف استوائه على عرشه فوق خلقه بالرحمانية دون سواها من أسمائه إعلاما لهم بأنه خلقهم ويرحمهم.. فكل فعله فيهم فعل مُلكٍ ورحمة.. وهذا سرٌ لا يكاد يستشعر معناه سوى المتدبرين لكلام الله وأرواح معانيه الكريمة...

(إن واجبنا أن نغرس في أبنائنا محبة الله، وأن نعوّدهم عبادته حبّا له واعترافا بفضله وإحسانه، وذلك هو منهج الإسلام. فإن الله في الإسلام، لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء، كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها، كما تصوّرها أساطير الإغريق، ولا يدبّر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في العهد القديم، كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الأصحاح الحادي عشر من سفر التكوين.

فالله، في الإسلام، هو الرحمن الرحيم، ليس مولعا بالانتقام والتعذيب. وبعض النّاس يحلوا لهم أن يصوّروا الإله منتقما جبّارا لا همّ له إلّا تعذيب الناس وإلقاؤهم في نار جهنم، وهي نغمة نابية عن روح الإسلام، غريبة عن نصوصه وتشريعاته السمحة.)[23]

جاء في صحيح الإمام البخاري:

باب: الدين يسر وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة "..

ثم روى بسنده – عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة "

وجاء في شرحه من فتح الباري للحافظ ابن حجر:

قوله: (باب الدين يسر)، أي: دين الإسلام ذو يسر، أو سمى الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله ; لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم. ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم.

قوله: (أحب الدين) أي: أحب خصال الدين ; لأن خصال الدين كلها محبوبة، لكن ما كان منها سمحا – أي: سهلا – فهو أحب إلى الله. ويدل عليه ما أخرجه أحمد بسند صحيح من حديث أعرابي لم يسمه أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول " خير دينكم أيسره ". أو الدين اسم يدل على جنس الأديان، أي: أحب الأديان إلى الله الحنيفية.

والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تُبدَّل وتُنسَخ. والحنيفية ملة إبراهيم، والحنيف في اللغة من كان على ملة إبراهيم، وسمي إبراهيم حنيفا لميله عن الباطل إلى الحق لأن أصل الحَنَف الميل، والسمحة أى السهلة، أي: أنها مبنية على السهولة، لقوله تعالى: { وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم.. الآية }..

---

[23] الموسوعة القرآنية خصائص السور (1/ 6)

وهذا الحديث المعلق لم يسنده المؤلف في هذا الكتاب ; لأنه ليس على شرطه. نعم وصله في كتاب الأدب المفرد، وكذا وصله أحمد بن حنبل وغيره من طريق محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس وإسناده حسن. استعمله المؤلف (أى البخاري) في الترجمة لكونه متقاصرا عن شرطه، وقواه بما دلَّ على معناه لتناسب السهولة واليسر.

ومنها حديث عروة الفقيمي بضم الفاء وفتح القاف عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال " إن دين الله يسر "، ومنها حديث بريدة قال قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " عليكم هديا قاصدا، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه " رواهما أحمد وإسناد كل منهما حسن.

قوله: " ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ".. والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغلَب. قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى المِلال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة..

وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد " إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة، وخير دينكم اليسرة " وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضي به استعماله إلى حصول الضرر.

قوله: (فسددوا) أي: الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل.

قوله: (وقاربوا) أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه.

قوله: (وأبشروا) أي: بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأفهم المبشَّر به تعظيما له وتفخيما.

قوله: (واستعينوا بالغدوة) أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة. والغدوة بالفتح سير أول النهار، وقال الجوهري: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. والروحة بالفتح السير بعد الزوال. والدلجة بضم أوله وفتحه وإسكان اللام سير آخر الليل، وقيل سير الليل كله، ولهذا عبر فيه بالتبعيض ; ولأن عمل الليل أشق من عمل النهار.

وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر، وكأنه – صلى الله عليه وسلم – خاطب مسافرا إلى مقصد فنبهه على أوقات نشاطه ; لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة.

وحسن هذه الاستعارة أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة، وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة. وقوله في رواية ابن أبي ذئب " القصد القصد " بالنصب فيهما على أسلوبية الإغراء،أى الزموا القصد وعليكم به، والقصد الأخذ بالأمر الأوسط.

ومناسبة إيراد المصنف لهذا الحديث عقب الأحاديث التي قبله ظاهرة من حيث إنها تضمنت الترغيب في القيام والصيام والجهاد، فأراد أن يبين أن الأولى للعامل بذلك أن لا يجهد نفسه بحيث يعجز وينقطع، بل يعمل بتلطف وتدريج ليدوم عمله ولا ينقطع.ا.ه.

أقول: نقلت هذا الحديث بشرحه في هذا الفصل المبارك لأبين عظمة هذا الدين، ونبذه للتنطع، ورحمة رب العالمين العظيمة بنا إذ جعله لا دينا..

" ملك يوم الدين"

هذا الدين هو في الحقيقة إعلان عالمي لحرية الإنسان من العبودية لغيره من بني الإنسان ومن العبودية لرغباته الخاصة، والتي هى أيضا شكل من أشكال عبودية الإنسان للشهوة، بل هو إعلان أن السيادة لله وحده، وأنه هو رب جميع العالمين.

وهو ما يعني تحديا لجميع أنواع وأشكال النظم والاعتقادات والأفكار، والتي تقوم على مفهوم سيادة البشر على البشر، وبعبارة أخرى، حيث بعض الناس قد انتحل – زورا وكفرا– صفة (إله)، أو وسائط وحجاب لدى (الإله).

هو تحدي لكل نظام تكون فيه التعاليم والقرارات النهائية والمصيرية في حياة البشر يصنعها بشر مثلهم هم مصدر السلطة التي تؤلههم لتصنع منهم آلهةً على إخوتهم في الإنسانية.

هذا الإعلان الرباني يعنى أن السلطة المنتحلة لبعض البشر والتي هى — في الحقيقة — لله وحده..

يجب أن تعود في قلوب المُستذَلِّين المنكوسين في أنواع العبادات والعقائد الضالة لله وحده...

باختصار فإن الإسلام يمثل إعلان لسلطة الله تعالى، وهو يعنى القضاء على كل ملكية في الأرض لغير الله الذي يجب أن يبسط الناس — بإيمانهم وتضحيتهم – حكمه على الجميع كما ينبسط رزقه على جميع من في الأرض..

وذلك كله ينبع من الحقيقة الأسمى التي يعلمها الإسلام الناس.. أنهم جميعا عائدون إلى الله تعالى.. في يومٍ تشخص فيه الأبصار.. ويقف الناس لساعة الحساب.. فيجازى المحسن بإحسانه،

والمسيء بإساءته.. لا يضيع خير ولا ينسى شر ولو كان مثقال ذرة.. ذلك يوم الدين.. كما قال ربنا " يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ " (الانفطار 19)..

قال ابن عباس رضى الله عنه: " يوم الدين " يوم حساب الخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، إلا من عَفا عنه، فالأمرُ أمرُه. ثم قال: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [سورة الأعراف: 54].

هناك لا ملك يقال في حق أحد إلا لله.. وإذا كان ثمة من تسمى باسم الملك في الدنيا مجازاً لا حقيقةً، فإن الملك في هذا اليوم هو لله وحده لا يسمى به غيره.. " وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا " (طه 108).. " يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ" (غافر16)..

فالناس في الدنيا يملكون ويحكمون ويتصرفون، فإذا كان يوم القيامة وقف النّاس جميعا للحساب الصغير والكبير، السّوقة والأمير، الوزير والخفير، الملك والأجير، كل الناس قد وقفوا حفاة عراة مجرّدين من كل جاه أو سلطان أو رتبة أو منزلة، وينادي الله سبحانه: لمن الملك اليوم؟ فيكون الجواب: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16) [غافر].

باختصار فإن المسلم يرقّيه إسلامه فيعلم الحقيقة الأسمى في الوجود أن لا خالقَ ولا مدبر ولا رازق ولا مالك في الحقيقة إلا الله سبحانه.. وإن تسمى أحد البشر بالملك والتصرف في الدنيا فهو ملك محدود زائل.. ويظل الملك الكامل الدائم الأبدي السرمدي لله الواحد القهار..

ومن هذه الحقيقة ينطلق المؤمن ليكسر كل أطواق العبودية ويحرر نفسه في توحيده لله.. فلا يخاف ولا يعبد ولا يرجو ولا يستعين ولا يدعو إلا الله تعالى..

وهذا الاستعلاء الإيماني النابع من يقين العلم بالحقائق الكبرى في الوجود هو ما يجعل المؤمن يرى كل عذاب الدنيا في الله، وفي سبيل حريته من ذل العبودية لغير الله أمراً هين.. فالحياة الدنيا قصيرة زائلة ثم نرد جميعا إلى الله ونحاسب بين يديه يوم الدين.. يوم لا ملك إلا لله سبحانه.. والشاهد في كل لحظة.. " قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (الجمعة 8)..

ولعل هذا الاستعلاء الإيماني النابع من اليقين الجازم بيوم الدين هو ما جعل سحرة فرعون يسترخصون النفوس في سبيل إيمانهم وعقيدتهم، فحين هددهم فرعون بالصلب والقتل وأشد النكال والعذاب ردوا عليه بكل ثقة في الله " مالك يوم الدين ".. " قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا" (طه 72)..

هذا هو في الحقيقة معنى ومغزى وروح الإيمان الجازم بأن الله تعالى هو " ملك يوم الدين "...

وإلا فأى غبنٍ وخسارةٍ يقع فيها من يردد هذه الجملة المعجزة في الفاتحة ليلَ نهارَ؛ ولا يدرك هذا المعنى، ولا يحتوي كيانه فيصنع في روحه المعجزات كما صنع بسحرة فرعون الأبطال...

ولعل أضواء هذا المعنى تقود حياة المؤمنين فتجعلهم في حالة مراقبةٍ دائبةٍ ودائمةٍ لتفاصيل حياتهم التي يعلمون يقيناً أنها ستُناقش ويُجازون بكل ما فيها من خيرٍ ومن شرٍ.. لا يدع الله فيها نقير ولا قطمير ولا ذرة.. " ولا أصْغَرُ منْ ذلكَ ولا أكْبَرُ إلا في كِتَابٍ مُبِينٍ " (سبأ3)..

ولهذا فإن الاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية، وأساس من أسس السعادة والنجاح للفرد والمجتمع.

فالمؤمن، عندما يتيقّن أن هناك يوما للجزاء والحساب يدفعه إيمانه إلى مراقبة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه.. ولهذا فإن التشريعات الإسلامية تتخذ طابعا مميّزا في التطبيق، فإن المؤمن ينفذها راغبا في ثواب الله راهبا لعقابه.

أمّا التشريعات الوضعية، فإن تنفيذها مرتبط بالخوف من السلطة.. وعند ما يتأكد الشخص من ابتعاده عن أعين السلطة، فإن هذا يهوّن عليه ارتكاب المخالفة.

أما القانون الإلهي، فإنه مرتبط بسلطةٍ عليا لا تغيب ولا تختفي أبدا.

إنها سلطة الله الذي يعلم السر وأخفى، ويطّلع على الإنسان أينما كان وحيثما وجد.. كما قال ربنا سبحانه "ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " [المجادلة]..

وهذا المعنى الراقي من دوام المراقبة والعمل من اجل الأفضل والأحسن هو ما يقرره في الوجدان وبكل عمقٍ وثباتٍ اعتقاد أنه سبحانه " مالك يوم الدين ".. يوم الحساب والجزاء..وبحسب فهم هذا المعنى وترسخه في النفس يكون ارتقاء العبد في منازل العبودية والمراقبة حتى يصل إلى درجة الإحسان وهى أعلى الدرجات في منازل العبودية.. وهو " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك "...

جاء في الإحياء للغزالي: حكى عن بعض الأحداث (الشباب) أنه راود جارية عن نفسها، فقالت له: ألا تستحيي ؟!... فقال لها: ممن أستحيي، وما يرانا إلا الكواكب ؟!... قالت: فأين مكوكبها(أى خالقها سبحانه الذي يرانا)؟!..

وَقَالَ رَجُلٌ للجنيد رحمه الله: بِمَ أَسْتَعِينُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ ؟.. فَقَالَ الجنيد: بِعِلْمِكَ أَنَّ نَظَرَ النَّاظِرِ إِلَيْكَ – سبحانه – أسبق من نظرك إلى المنظور إليه..

وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل..

وقال عبد الله بن دينار: خرجتُ مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا (أى نزلنا وتوقفنا) في بعض الطريق، فانحدر عليه (أى قابلنا) راعٍ من الجبل..

فقال عمر بن الخطاب له: يا راعي بعنى شاةً من هذه الغنم.. فقال الراعي: إني مملوك ولا أبيع شيئا من ملك سيدي بغير إذنه.. فقال عمر: قل لسيدك أكلها الذئب.. فقال الراعي: فأين الله !؟

قال: فبكى عمر رضي الله عنه، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه.. وقال للمملوك: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة) ا.ه.

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقلْ... خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً... ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيبُ

ألم ترَ أنَّ اليومَ أسرعُ ذاهبٍ... وأنَّ غداً إذاً للناظرين قريبُ

وتأمل معي وصية الصديق أبي بكر للفاروق عمر بن الخطاب كما جاء في صفوة الصفوة:

لما حضر أبا بكر الصديق الموت دعا عمر فقال له:

"اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار.. وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي فريضته.. وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم.. حُقَّ لميزان يوضع فيه الحقُ غداً أن يكون ثقيلاً.. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحقَّ لميزانٍ يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً..

وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرْتَهم قلتَ: اني لأخاف أن لا ألحق بهم..

وإن الله تعالى ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلتَ: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء.. ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمة الله. فإن أنت حفظت وصيتي فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت وهو آتيك.. وإن أنتَ ضيعّت وصيتي فلا يكن غائب أبغضَ إليك من الموت، ولست تعجزه") [24].

لله ما أروعها من وصية عظيمٍ لعظيمٍ أدركا الحقيقة وعاشا عليها...

لمحة بلاغية:

[24] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء 71/1. رقم 83. وابن المبارك في الزهد.

يقول العلامة الشوكاني في تفسيره (فتح القدير): {مالك يَوْمِ الدين} قُرئ: {مِلك} و{مالك} و{مَلْك} بسكون اللام، و{مَلَكَ} بصيغة الفعل.

وقد اختلف العلماء أيما أبلغ مِلك، أو مالك؟ فقيل إن مَلِكَ أعمّ، وأبلغ من مالك، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، ولأن أمر الملك نافذٌ على المالك في مُلكه حتى لا يتصرّف إلا عن تدبير الملك، قاله أبو عبيد، والمبرّد، ورجحه الزمخشري.

وقيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكاً للناس، وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً، وأعظم.

وقال أبو حاتم: إن مالكاً أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكاً كان ملكاً.

واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي.

والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر؛ فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع، والهبة، والعتق، ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير المُلك، وحياطته، ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه، أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله. ا.ه.

" إياك نعبد وإياك نستعين "

قال الطبرى في تفسيره: وقوله (إِيَّاكَ نعبُدُ): أى لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.. (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها – لا أحدًا سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة. ا.ه.

{ إياك نعبد} أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع.. {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أي لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله سبحانه: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، بعد قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يُتوكَّل إلا على مَن يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر.

وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا واضحا في آيات أخر كقوله: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} الآية، وإلى غير ذلك من الآيات.....ا.ه. [25]

فمن مقتضى حمد اللّه الذي استوجبه سبحانه على عباده بربوبيته، ورحمته، أن يفرد بالعبودية، وأن يختص بالعبادة، فلا متوجّه إلا إليه، ولا لجوء إلا له، ولا معول إلا عليه. « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ، فَادْعُوهُمْ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » (194: الأعراف).

وفي التعبير هنا براعة في الأداء وبلاغة في الأسلوب لا تدانى..

وكما قال العلامة أبو السعود بما حاصله: التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتلوينٌ للنظم من بابٍ إلى بابٍ، يجري به على نهج البلاغة في تنويع الكلام، وسلوك مسلَكِ البراعة حسبما يقتضي المقام.. وذلك أن التنقلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أنفعُ وأقوى في استجلاب النفوسِ واستمالةِ القلوب.. كما في قوله عز وجل {والله الذى أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً} الآية وقولُه تعالى {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم} إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردةِ في التنزيل لأسرارٍ تقتضيها ومزايا تستدعيها. ا.ه. [26]

(وقد وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك.) ا.ه.[27]

قلت: ثم إن هذه الجملة الوجيزة الواضحة البسيطة حملت من معاني الدين الأساسية ما يعد اللبنة الأولى في بناء عقيدة المسلم، والضابط الأهم لمسيرته في الاعتقاد والعمل...

يقول القاسمي رحمه الله: (وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده. أعني: أن لا يشرك شيئا ما معه، لا في محبته كمحبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده.

---

[25] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2/ 6) باختصار.

[26] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 16).

[27] صفوة التفاسير (1/ 21)

وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذّل بكمال الحب. فلا بد أن يكون العابد محبّا للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده. فهو الإله المستحق للعبادة، الذي لا يستحقها إلّا هو، وهي كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلّا هو، تعالى.

وقد أشار لذلك تقديم المفعول (إياك)، فإن فيه تنبيها على ما يجب للعبد من تخصيصه ربّه بالعبادة، وإسلامه وجهه لله وحده، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، فقد كانوا متفرقين في عبادتهم، متشاكسين في وجهتهم:

منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار... إلى غير ذلك، كما بينه القرآن الكريم في قوله تعالى: " وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ " [فصلت: 37] الآية....

وحديث أبي واقد الليثيّ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها «ذات أنواط» فمررنا بسدرة (شجرة كانوا يعلقون عليها أشياءهم ويقدسونها) فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر، إنها السنن(بفتح السين أى المنهج والطريق يعنى اتباعهم طريق من قبلهم في الشرك والخزعبلات)، قلتم- والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: " اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ- إلى قوله: وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ" [الأعراف: 138- 140] رواه الترمذيّ وصححه.

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففي قوله تعالى: "اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ" [التوبة: 31]،

فروى الإمام أحمد والترمذي عن عديّ بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية " اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ " الآية، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمون، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» فقلت: بلى قال: «فتلك عبادتهم».

فالعبادة أنواع وأصناف، ولا يتم الإيمان إلّا بتوحيدها كلها لله سبحانه. وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة. أي ركنها المهم الأعظم. وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى:" وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي" [غافر: 60]، فسماه عبادة.

وفي الخبر الصحيح: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل».

قال شمس الدين بن القيم: ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول:

" إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ".. والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله، إما خوفا منه، أو رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك، ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عِدْلا وندا يحبه، ويخافه، ويرجوه، يذل ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته، والمؤثر لا يرضى بإيثاره.. انتهى.

(فائدة) قال بعض السلف: الفاتحة سرّ القرآن، وسرّها هذه الكلمة " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ": فالأول تبرّؤ من الشرك، والثاني تبرّؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عزّ وجلّ. وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: " فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ " [هود: 123]، " قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا " [الملك: 29]،" رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا" [المزمل: 9].) ا.ه.[28]

قلت: ففي هذه آية العظيمة دستور العلاقة الصحيحة بين العبد وربه سبحانه لذلك قال الله فيها في حديث القدسي عن الفاتحة " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين " ثم قال في هذه الآية: " هذه بيني وبين عبدي ".. ولكي يتضح هذا المعنى أكثر نقرأ سويةً ما قاله العلامة البقاعي:

(لما استجمع الأمر في استحقاق الله تعالى للحمد وحده دون سواه.. وفي تحبيب خلقه وترغيبهم في رحمته العامة والخاصة وترهيبهم من يوم الحساب والجزاء (في الآيات الأولى من الفاتحة).. كان من شأن كل ذي عقلٍ وفهمٍ الإقبال إليه وقصر الهمم عليه..

فقال ربنا منتقلاً من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب.. ومقدماً للوسيلة (عبادة الله وقصده كما ينبغي وكما علمنا) على طلب الحاجة (الاستعانة به سبحانه في كل أمورنا) لأنه أجدر بالإجابة.. قال الله تعالى يعلمنا فقه المعاملة معه تعالى: {إياك} أي يا من هذه الصفات صفاته (الله الرحمن الرحيم ملك يوم الدين)! {نعبد}؛ ومعنى {نعبد وإياك نستعين} إشارةً لطيفةً إلى أن عبادته لا تهيأ إلا بمعونته، وإلى أن ملاك الهداية بيده سبحانه وحده..

فعلم العباد العجز عن الوفاء بحق الله تعالى فطلبوا الإعانة، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي عن عائشة رضى الله عنها: «أعوذ بعفوك

---

[28] تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 228)

من عقوبتك، وبرضاك من سخطك، وبك منك» ثم أتبعه فيما زاد عن النسائي الاعتراف بالعجز في قوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت أثنيت على نفسك».

قال الحرالي: وهذه الآيات هي من كلام الله عما كان يجب أن ينطق (المؤمنون) على اختلاف ألسنتهم وأحوالهم وترقي درجاتهم ورتب تفاضلهم مما لا يمكنهم البلوغ إلى حقيقته ووصفه لقصورهم وعجزهم..

فتولى الله – الوكيل على كل شيء– الإخبار عنهم بما كان يجب عليهم مما لا يبلغ إليه عقولهم ووصفهم..

وجعل تلاوتهم لما أخبر به سبحانه على ألسنتهم نازلاً لهم منزلة (نطقهم بهذه المعاني العظيمة) لطفاً بهم وإتماماً للنعمة عليهم..

لأنه تعالى لو وكلهم في ذلك إلى أنفسهم لم يأتوا بشيء تصلح به أحوالهم في دينهم ودنياهم، ولذلك لا يستطيعون شكر هذه النعمة إلا أن يتولى هو تعالى بما يلقنهم من كلامه مما يكون أداء لحق فضل الله عليهم..

وإذا كانوا لا يستطيعون الإخبار عن أنفسهم بما يجب عليهم من حق ربهم فكيف بما يكون خبراً عن تحميد الله وتمجيده، فإذاً ليس لهم ملجأً إلا تلاوة كلامه العلي بفهمٍ كان ذلك أو بغير فهم، وتلك هي صلاتهم المقسمة التي عبر عنها فيما صح عنه علية الصلاة والسلام من قوله تعالى:

«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» ثم تلا هذه السورة؛ فجاءت الآيات الثلاث الأول بحمد الله تعالى نفسه، فإذا تلاها العبد قبل الله منه تلاوة عبده كلامه وجعلها منه حمداً وثناء وتمجيداً، وجاءت هذه الآيات" إياك نعبد وإياك نستعين ".. على لسان خلقه فكان ظاهرها التزام عُهَد العبادة وهو ما يرجع إلى العبد؛ وعمادها طلب المعونة من الله سبحانه وهو ما يرجع إلى الحق، فكانت بينه وبين عبده..

وفي قوله: {نعبد} بنون الاستتباع (نون الجمع) إشعار بأن الصلاة وعبادة الله تعالى بنيت على الاجتماع (قلت: وذلك قوله تعالى يأمرنا بالاجتماع على عبادته وتوحيده " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " فالإسلام دين الجماعة لا الفرقة.. ولكنها الاجتماع على توحيد الله وصحيح الاعتقاد فيما جاءت به رسله). انتهى.[29]

هذا الدين كان وسيظل شعاره ومبدأه وقاعدته التي لا تتزحزح ومنحى رسالته الأول هو...

"لا إله إلا الله... محمد رسول الله"

---

[29] من كتاب البقاعي الرائع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (1/ 33) بتلخيص وتصرف في اللفظ لتقعره.

فمعنى الشطر الأول لكلمة التوحيد هو التبرأ من شئ يستعبد الإنسان، وإعلان ارتقاء الإنسان لمستوى عبودية الله وحده ذي الجلال والكمال المطلق..

ومعنى الشطر الثاني هو التبرأ من اتباع أحدٍ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم المبعوث من ربه المعصوم منه..

والمشكلة في عبَّاد المال والسلطة والرياسة والمتعة أنهم لا يدركون أنهم كسروا معنى الإسلام في نفوسهم وأن مجرد نطق الشهادتين وإن عصمهم في الدنيا لا يعصمهم عند علام الغيوب يوم كشف السرائر...

نصيحة كل الأنبياء وقد أحسنوا النصح:

لا تستعبد نفسك لشئ ولا لفكرة ولا لأحدٍ ولا لهوى..

لا تخشى إلا الله.. ولا تستعن بغيره.. ولا ترجو بعملك سواه..

هذه النجاة..

قال الله: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } (الأنبياء25)

يقول الطبري في تفسيره: يَقُول تَعَالَى ذِكْره: وَمَا أَرْسَلْنَا يَا مُحَمَّد مِنْ قَبْلك مِنْ رَسُول إِلَى أُمَّة مِنْ الْأُمَم إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَعْبُود فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض تَصْلُح الْعِبَادَة لَهُ سِوَايَ، فَأَخْلِصُوا لِي الْعِبَادَة ، وَأَفْرِدُوا لِي الْأُلُوهَة.

" اهدنا الصراط المستقيم "

أدبٌ ربانيٌّ جديد لفقه المعاملة مع الله سبحانه يعلِّمه الله تعالى عباده حين اتصالهم به سبحانه والوقوف بين يديه ودعائه..

فإنه [لما تقدم الثناء على المسؤول تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاسَبَ أَنْ يُعَقَّبَ بِالسُّؤَالِ كَمَا قَالَ: «فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ أَنْ يَمْدَحَ مسؤوله ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ لِأَنَّهُ أَنْجَحُ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَعُ لِلْإِجَابَةِ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ، وَقَدْ يَكُونُ السُّؤَالُ بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِ السَّائِلِ وَاحْتِيَاجِهِ كَمَا قَالَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – " رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ " [القصص: 24]، وَقَدْ يَتَقَدَّمُهُ مَعَ ذلك وصف المسؤول كَقَوْلِ ذِي النُّونِ – عليه السلام – " لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"، وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول كقول الشاعر:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ...

وَالْهِدَايَةُ المطلوبة هَاهُنَا الْإِرْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ،.. و "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" تَضَمَّنُ مَعْنَى أَلْهِمْنَا أَوْ وَفِّقْنَا أَوِ ارْزُقْنَا أَوِ اعْطِنَا..

وَأَمَّا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ الطبري: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فيه وكذلك فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ،.. ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي تَفْسِيرِ الصِّرَاطِ، وَإِنْ كَانَ يَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم..

ثم يقول العلامة ابن كثير بعد ذكر أقوال أهل الذكر في المقصود من الصراط المستقيم بأنه القرآن العظيم، و أنه الإسلام، وهو اتباع الرسول، وهو اتباع الصحب المهديين من بعده..

قال: وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ فإن من اتبع الإسلام فقد اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَمَنِ اتَّبَعَ الْحَقَّ فَقَدِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ وَمَنِ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ فَقَدِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ الْمَتِينُ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ «تفسير الطبري 1/ 104»: وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدِي أَعْنِي- اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ- أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِهِ: وَفِّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَفَّقْتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ مِنْ قَوْلٍ وعمل ذلك هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ لِأَنَّ مَنْ وُفِّقَ لِمَا وُفِّقَ لَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَقَدْ وُفِّقَ لِلْإِسْلَامِ وَتَصْدِيقِ الرُّسُلِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَالِانْزِجَارِ عَمَّا زَجَرَهُ عَنْهُ وَاتِّبَاعِ مِنْهَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهَاجِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَكُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ وَكُلُّ ذَلِكَ من الصراط المستقيم.

وفي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تُعَوِّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ- فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ- فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وهو إسناد حسن صَحِيحٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.] انتهى.[30]

---

[30] راجع تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 50-53)

" اهدنا الصراط المستقيم "...

معنى آخر وأساس مهم جدا من أسس بناء عقيدة المسلم.. ورسم معالم سيره في الحياة على نورٍ من الله تعالى.. ذلك الإحساس واليقين المتجذر في نفوس المؤمنين بأنهم الفقراء إلى الله المحتاجين في كل وقتٍ وحين للهداية الربانية والنور السماوي لينتشلهم من الضياع والهلاك؛ ويبين لهم طريق النجاة والفلاح..

وهنا تتكون شخصية المسلم المستعدة لقبول التزكية الربانية كل لحظةٍ من لحظات حياتها لتنال الفلاح الذي عبر عنه اللفظ القرآني في سورة الشمس حين أقسم الله سبحانه بهذه النفس الغالية المكرمة تكريما إلهيا فقال سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.. فإن طريق النجاة الوحيد هو استعداد الانسان المستمر لتزكية نفسه وتخليصها من أدرانها وسوءاتها، ونبذ الركون إلى شهواتها وشبهاتها ودسها في غيها وفسادها..

هذا المعنى لابد أن يتجدد في حياة المؤمن الذي يردد في يومه وليلته دائما هذا الدعاء الراقي الجميل البديع " اهدنا الصراط المستقيم "..

[فإن قيل فكيف يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا؟

فَالْجَوَابُ أَنْ لَا، وَلَوْلَا احْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى الْهِدَايَةِ وَرُسُوخِهِ فِيهَا وَتَبَصُّرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.. فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَمُدَّهُ بِالْمَعُونَةِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ..

فَالسَّعِيدُ من وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ؛ وَلَا سِيَّمَا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ" [النِّسَاءِ: 136]..

فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ؛ وَلَيْسَ ذلك من باب تَحْصِيلُ الْحَاصِلِ لِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّبَاتُ وَالِاسْتِمْرَارُ وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.] ا.ه.[31]

يقول العلامة ابن أبي العز الحنفي في كتابه الماتع شرح الطحاوية:

---

[31] تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 53)

"{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} إذا هداه هذا الصراط، أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب، ليس كما يقوله بعض المفسرين: إنه قد هداه، فلماذا يسأل الهدى؟ وأن المراد التثبيت، أو مزيد الهداية.

بل العبد محتاجٌ إلى أن يُعلِّمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم، وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك، فإنه لا يكفي مجرّد علمه، إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه، وإلاَّ كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتدياً..

والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة..

فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم.. وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه.. وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك.. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر.. ونحن محتاجون إلى الهداية التامّة، فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤاله سؤال تثبيت، وهي آخر الرتب.

وبعد ذلك كله هداية أخرى، وهي الهداية إلى طريق الجنة في الآخرة..

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة، لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء، فيجب أن يعلم المسلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر، فقد بيَّن القرآن أن السيئات من النفس، وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله تعالى) ا.ه.

وللعلامة ابن القيم في هذا المعنى كلاما رائعا:

[ومن هاهنا خُذل من خذل ووُفق من وفق.. فحُجب المخذول عن حقيقته ونُسِّي نفسه فنَسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وبغا وعتا فحقت عليه الشقوة..

قال تعالى: {كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىَ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىَ} [العلق: 6-7]، وقال: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىَ وَاتَّقَىَ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىَ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىَ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىَ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىَ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىَ} [الليل: 5-10]..

فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين..

ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: "أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك"..

وكان يدعو: "يا مقلِّب القُلُوب ثَبِّتْ قلبي عَلَى دينك".

يعلم صلى الله عليه وسلم أن قلبه بيد الرحمن عَزَّ وجَلَّ لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاءُ كيف وهو يتلو قوله تعالى: {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} [الإسراء: 74]..

فضرورته صلى الله عليه وسلم إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء..

ولهذا كان أَقرَبَ الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عز وجل..

وكان يقول لهم: "أيها النَّاسُ، مَا أُحبُّ أَنْ ترفعوني فَوْقَ منزلتي إِنَّمَا أنا عَبْدُ"، وكان يقول: "لا تُطروني كَمَا أَطْرَتِ النصارى المسيح ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله".

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي، فقال: {سُبْحَانَ الّذِي أَسْرَىَ بِعَبْدِهِ لَيْلاً} [الإسراء:1].. وقال: {وَأَنَّهُ لّمَا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ} [الجن: 19].. وقال: {وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مّمّا نَزّلْنَا عَلَىَ عَبْدِنَا} [البقرة: 23].. وفي حديث الشفاعة: "إِنَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ يوم القيامة: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ".. فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له.. فتأمل قوله تعالى في الآية: {أَنْتُمُ الفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ والله هو الغنى الحميد} [فاطر: 15]. ا.ه.[32]

".. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ "..

[ذَكَرَ سبحانه الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مُفْرَدًا مُعَرَّفًا تَعْرِيفَيْنِ: تَعْرِيفًا بِاللَّامِ، وَتَعْرِيفًا بِالْإِضَافَةِ.. وَذَلِكَ يُفِيدُ تَعْيِينَهُ وَاخْتِصَاصَهُ، وَأَنَّهُ صِرَاطٌ وَاحِدٌ، وَأَمَّا طُرُقُ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْمَعُهَا وَيُفْرِدُهَا، كَقَوْلِهِ {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: 153] فَوَحَّدَ لَفْظَ الصِّرَاطِ وَسَبِيلِهِ، وَجَمَعَ السُّبُلَ الْمُخَالِفَةَ لَهُ..

«قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، وَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} »..

وَهَذَا لِأَنَّ الطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَ إِلَى اللَّهِ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَلَوْ أَتَى النَّاسُ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَاسْتَفْتَحُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ، فَالطُّرُقُ

---

[32] طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: 10)

عَلَيْهِمْ مَسْدُودَةٌ، وَالْأَبْوَابُ عَلَيْهِمْ مُغَلَّقَةٌ إِلَّا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ الْوَاحِدِ، فَإِنَّهُ مُتَّصِلٌ بِاللَّهِ، مُوَصِّلٌ إِلَى اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [الحجر: 41] قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ صِرَاطٌ إِلَيَّ مُسْتَقِيمٌ][33]...

يقول العلامة ابن كثير:

وقوله تعالى: " صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ " مُفَسِّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ وَهُوَ بَدَلٌ مِنْهُ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يكون عطف بيان والله أعلم.. والذين أنعم الله عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: " وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً. ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً " [النِّسَاء: 69- 70].. وَالْمَعْنَى: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُمْ وَنَعْتُهُمْ وَهُمْ أَهْلُ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ غَيْرِ صراط المغضوب عليهم الَّذِينَ فسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَلَا صِرَاطِ الضَّالِّينَ وَهُمُ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الحق. وأكَّد الكلام ب{لا} لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمَّ مَسْلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،.. فهى إذاً غير زائدة وإِنَّمَا جِيءَ بِهَا لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عليهم، وللفرق بين الطريقتين.. وكأنه قيل (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عليهم وغير الضالين).. ليتجنب المؤمنون كُلاًّ مِنْهُمَا فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ، وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ، وَلِهَذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالُ لِلنَّصَارَى..

لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ استحق الغضب خلاف مَنْ لَمْ يَعْلَمْ، وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانُوا قَاصِدِينَ شَيْئًا لَكِنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ الْحَقِّ، ضَلُّوا.. وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، لَكِنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ الغضب كما قال تعالى عنهم:"مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ " [الْمَائِدَةِ: 60]، وَأَخَصُّ أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم:" قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ " [الْمَائِدَةِ: 77] وَبِهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ والآثار.. «إن الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى».

انتهى[34]

" صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ "..

---

33 مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 37)

34 راجع تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 53-55).

يعلم الله تعالى المؤمنين بفضله ومنته أن يقولوا " اهدنا الصراط المستقيم ".. ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم: «صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»..

فهو طريق الذين قسم لهم نعمته. لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدهم عنه. أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه.. إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين..

(فَانْقَسَمَ النَّاسُ بِحَسَبِ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْحَقِّ، وَإِمَّا جَاهِلًا بِهِ، وَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِمُوجَبِهِ أَوْ مُخَالِفًا لَهُ، فَهَذِهِ أَقْسَامُ الْمُكَلَّفِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا الْبَتَّةَ، فَالْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَامِلُ بِهِ هُوَ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي زَكَّى نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الْمُفْلِحُ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} [الشمس: 9] وَالْعَالِمُ بِهِ الْمُتَّبِعُ هَوَاهُ هُوَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ، وَالْجَاهِلُ بِالْحَقِّ هُوَ الضَّالُّ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ ضَالٌّ عَنْ هِدَايَةِ الْعَمَلِ، وَالضَّالُّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ لِضَلَالِهِ عَنِ الْعِلْمِ الْمُوجِبِ لِلْعَمَلِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ) ا.ه.[35]

وقد نسبَ النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} و لم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل: غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً «الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك»..

قال ابن القيم– رحمه الله – في المدارج:

[وإن النِّعْمَةَ هِيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ، وَالْغَضَبَ مِنْ بَابِ الِانْتِقَامِ وَالْعَدْلِ، وَالرَّحْمَةَ تَغْلِبُ الْغَضَبَ، فَأَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ أَكْمَلَ الْأَمْرَيْنِ، وَأَسْبَقَهُمَا وَأَقْوَاهُمَا، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي إِسْنَادِ الْخَيْرَاتِ وَالنِّعَمِ إِلَيْهِ، وَحَذْفِ الْفَاعِلِ فِي مُقَابَلَتِهِمَا، كَقَوْلِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: 10].. وكذلك إنَّ فِي حَذْفِ فَاعِلِ الْغَضَبِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِإِهَانَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَتَحْقِيرِهِ وَتَصْغِيرِ شَأْنِهِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ فَاعِلِ النِّعْمَةِ مِنْ إِكْرَامِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ، وَرَفْعِ قَدْرِهِ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ قَدْ أَكْرَمَهُ مَلِكٌ وَشَرَّفَهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ، فَقُلْتَ: هَذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ السُّلْطَانُ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مَا تَمَنَّاهُ، كَانَ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ مِنْ قَوْلِكَ: هَذَا الَّذِي أُكْرِمَ وَخُلِعَ عَلَيْهِ وَشُرِّفَ وَأُعْطِيَ.] ا.ه.

فائدة:

وقال بعض المفسّرين: الأولى أن يُحمل {المغضوب عَلَيْهِم} على كلّ من أخطأ في الأعمال الظاهرة وهم الفُساق، ويُحمل {الضالّون} على كل من أخطأ في الاعتقاد، لأنّ اللفظ عامٌ،

35 مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للعلامة ابن القيم رحمه الله (1/ 34)

والتقييد خلاف الأصل، والمنكرون للصانع والمشركون أخبثُ ديناً من اليهود والنّصارى، فكان الاحتراز عن دينهم أولى، وهذا اختيار الإمام الفخر.

وقد ردّه الألوسي لأن تفسير المغضوب عليهم والضالين ب (اليهود والنصارى) جاء في الحديث الصحيح المأثور فلا يُعتد بخلافه.

وقال القرطبي: «جمهور المفسّرين أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى، وجاء ذلك مفسّراً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث (عديّ بن حاتم) وقصة إسلامه».

وقال أبو حيان: وإذا صحّ هذا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب المصير إليه.

أقول: ما ذكره الفخر الرازي ليس فيه ردّ للمأثور، بل إنّه عمّم الحكم فجعله شاملاً لليهود والنصارى ولجميع من انحراف عن دين الله، وضلّ عن شرعه القويم، حيث يدخل في اللفظ جميع الكفّار والمنافقين، وإليك نصّ كلام الإمام «الفخر».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويحتمل أن يقال المغضوب عليهم هم الكفّار، والضّالون هم المنافقون، وذلك لأنه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آياتٍ من أوّل البقرة، ثم أتبعه بذكر الكفار، ثمّ أتبعه بذكر لمنافقين، فكذا هنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله: {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} ثم أعقبه بذكر الكفار وهو قوله {غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم} ثمّ أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله: {وَلاَ الضآلين}.

الخلاصة من تأمل سورة الفاتحة

يقول العلامة ابن القيم في كتابه "أسرار الصلاة" تحت عنوان: حال العبد في الفاتحة:

فينبغي بالمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة، ينتظر جواب ربِّه له، و كأنه يسمعه و هو يقول: " حمدني عبدي " إذا قال: { الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ}.

فإذا قال: { الرَّحمن الرَّحيم } وقفَ لحظة ينتظر قوله: " أثنى عليَّ عبدي ".

فإذا قال: {مالكِ يومِ الدِّينِ } انتظر قوله: " مجَّدني عبدي ".

فإذا قال: { إيَّاك نَعبدُ و إيَّاك نَستعين } انتظر قوله تعالى: " هذا بيني و بين عبدي ".

فإذا قال: {اهدِنا الصِّراط المُستقيم } إلى آخرها انتظر قوله: " هذا لعبدي و لعبدي ما قال ".

و مَن ذاق طعم الصلاة عَلِمَ أنه لا يقوم مقام التكبير و الفاتحة غيرهما مقامها، كما لا يقوم غير القيام و الركوع و السجود مقامها، فلكلٍّ عبوديته من عبودية الصلاة سرٌّ و تأثيرٌ و عبودية لا تحصل في غيرها، ثمَّ لكل آية من آيات الفاتحة عبودية و ذوق و وجد يخُصُّها لا يوجد في غيرها.

فعند قوله: { الحمد لله رب العالمين } تجد تحت هذه الكلمة إثبات كلّ كمال للرب و وصفا و اسما، و تنزيهه سُبحَانه و بحمده عن كلِّ سوء، فعلاً و وصفاً و اسماً، و إنما هو محمود في أفعاله و أوصافه و أسمائه، مُنزَّه عن العيوب و النقائص في أفعاله و أوصافه و أسمائه.

فأفعاله كلّها حكمة و رحمة و مصلحة و عدل و لا تخرج عن ذلك، و أوصافه كلها أوصاف كمال، و نعوت جلال، و أسماؤه كلّها حُسنى.

من معاني الحمد

و حمده تعالى قد ملأ الدنيا و الآخرة، و السموات و الأرض، و ما بينهما و ما فيهما، فالكون كلّه ناطق بحمده، و الخلق و الأمر كلّه صادر عن حمده، و قائم بحمده، و وجوده و عدمه بحمده، فحمدُه هو سبب وجود كل شيء موجود، و هو غاية كل موجود، و كلّ موجود شاهد بحمده، فإرساله رسله بحمده، و إنزاله كتبه بحمده، و الجنة عُمِّرت بأهلها بحمده، و النَّار عُمِّرت بأهلها بحمده، كما أنَّها إنَّما وجدتا بحمده.

و ما أُطيع إلا بحمده، و ما عُصي إلا بحمده، و لا تسقط ورقة إلا بحمده، و لا يتحرك في الكون ذرَّة إلا بحمده، فهو سبحانه و تعالى المحمود لذاته، و إن لم يحمده العباد.

كما أنه هو الواحد الأحد، و إن لم يوحِّده العباد، و هو الإله الحقُّ و إن لم يؤلِّهه، سبحانه هو الذي حمِد نفسه على لسان الحامد كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: " إن الله تعالى قال على لسان نبيه: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَه".

فهو الحامدُ لنفسه في الحقيقة على لسان عبده، فإنه هو الذي أجري الحمدَ على لسانه و قلبه، و أجراؤه بحمده فله الحمد كله، و له الملك كله، و بيده الخير كله، و إليه يرجع الأمر كله، علانيته و سره.

فهذه المعرفة نبذة يسيرة من معرفة عبودية الحمد، و هي نقطة من بحر لُجِّي من عبوديته.

و من عبوديته أيضا: أن يعلم أن حمده لربه نعمة مِنه عليه، يستحق عليها الحمد، فإذا حمده عليها استَّحق على حمده حمداً آخر، و هلَّم جرا.

فالعبد و لو استنفد أنفاسه كلّها في حمد ربه على نعمة من نعمه، كان ما يجب عليه من الحمد عليها فوق ذلك، و أضعاف أضعافه، و لا يُحصي أحد البتّة ثناءً عليه بمحتمده، و لو حمده بجميع المحامد فالعبد سائر إلى الله بكلِّ نعمة من ربِّه، يحمده عليها، فإذا حَمده على صرفها عنه، حمده على إلهامه الحمدُ.

قال الأوزاعي: " سمعت بعض قوَّال ينشد في حمامٍ لك الحمدُ إمّا على نعمةٍ و إمَّا على نقمة تُدفع".

و من عبودية الحمد: شهود العبد لعجزه عن الحمد، و أنَّ ما قام به منه، فالوب سبحانه هو الذي ألهمه ذلك، فهو محمود عليه، إذ هو الذي أجراه على لسانه و قلبه، و لولا الله ما اهتدى أحد.

و من عبودية الحمد: تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرها و باطنها على ما يحب العبد منها و ما يكره، بل على تفاصيل أحوال الخلق كلّهم، برِّهم و فاجرهم، علويهم و سفليهم، فهو سبحانه المحمود على ذلك كلّه في الحقيقة، و إن غاب عن شهود العبد حكمة ذلك، و ما يستحق الرب تبارك و تعالى من الحمد على ذلك و الحمد لله: هو إلهام من الله للعباد، فمستقل و مستكثر على قدر معرفة العبد بربه.

و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم في حديث الشفاعة: " فأقع ساجداً فيلهمني الله محامد أحمده بها لم تخطر على بالي قط ".

عبودية {ربِّ العالمين}

ثم لقول العبد:: { ربِّ العالمين} من العبودية شهود تفرّده سبحانه بالربوبية وحده، و أنَّه كما أنه رب العالمين، و خالقهم، و رازقهم، و مدبِّر أمورهم، و موجدهم، و مغنيهم، فهو أيضا وحده إلههم، و معبودهم،و ملجأهم و مفزعهم عند النوائب، فلا ربَّ غيره، و لا إله سواه.

عبودية { الرَّحمَن الرَّحيم}

و لقوله: { الرَّحمن الرَّحيم } عبودية تخصه سبحانه، و هي شهود العبد عموم رحمته.

و شمولها لكلّ شيء، و سعتها لكلِّ مخلوق و أخذ كلّ موجود بنصيبه منها، و لاسيما الرحمة الخاصَّة بالعبد و هي التي أقامته بين يدي ربه: أقم قلاناً ـــ ففق بعض الآثار أن جبرائيل يقول كل ليلة أقم فلانًا، و أنم فلانا فبرحمته للعبد أقامه في خدمته يناجيه بكلامه، و يتملقه و يسترحمه و يدعوه و يستعطفه و يسأله هدايته و رحمته، و تمام نعمته عليه دنياه و أخراه فهذا من رحمته بعبده، فرحمته وسعت كل شيء، كما أن حمده وسع كل شيء، و علمه وسع كل شيء، { ربَّنا وسعتَ كُلَّ شيء رَّحمة و علما} [غافر:7]، و غيره مطرود محروم قد فاتته هذه الرحمة الخاصَّة فهو منفي عنها.

عبودية { مالكِ يومِ الدِّينِ}

و يعطى قوله { مالك يوم الدِّين } عبوديته من الذلِّ و الانقياد، و قصد العدل و القيام بالقسط، و كفَّ العبد نفسه عن الظلم و المعاصي، و ليتأمل ما تضمنته من إثبات المعاد و تفرَّد الربِّ في ذلك بالحكم بين خلقه، و أنه يومٌ يدين الله فيه الخلق بأعمالهم من الخير و الشر، و ذلك من تفاصيل حمده، و موجبه كما قال تعالى: { و قُضيَ بينَهم بالحقِّ و قيل الحمدُ لله ربِّ العالمين}[الزمر:75].

و يروى أن جميع الخلائق يحمدونه يومئذ أهل الجنة و أهل النار، عدلا و فضلا، و لما كان قوله {الحمد لله رب العالمين}.

إخبارا عن حمد عبده له قال: حمدني عبدي.

ما معنى (الثناء) (التمجيد)؟

و لما كان قوله { الرحمن الرحيم} إعادة و تكريرا لأوصاف كماله قال: " أثنى عليَّ عبدي "، فإنَّ الثناء إنَّما يكون بتكرار المحامد، و تعداد أوصاف المحمود، فالحمد ثناء عليه، و { الرحمن الرَّحيم } وصفه بالرحمة.

و لما وصف العبد ربه بتفرُّده بملك يوم الدين و هو الملك الحق، مالك الدنيا و الآخرة؛ و ذلك متضمِّن لظهور عدله، و كبريائه و عظمته، و وحدانيته، و صدق رُسله، سمَّى هذا الثناء مجداً فقال: " مجَّدني عبدي " فإن التمجيد هو: الثناء بصفات العظمة، و الجلال، و العدل، و الإحسان.

عبودية { إيَّاك نعبدُ }

فإذا قال: { إيَّاك نعبدُ و إيَّاك نستعين } انتظر جواب ربه له: " هذا بيني و بين عبدي، و لعبدي ما سأل ".

و تأمل عبودية هاتين الكلمتين و حقوقهما، و ميِّز الكلمة التي لله سبحانه و تعالى، و الكلمة التي للعبد، و فِقهِ سرَّ كون إحداهما لله، و الأخرى للعبد، و ميِّز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة { إيَّاك نعبدُ } و التوحيد الذي تقتضيه كلمة { و إيَّاك نستعين }، و فِقهَ سرَّ كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما، و الدعاء بعدهما، و فِقه تقديم { إياك نعبد } على { و إياك نستعين }، و تقديم المعمول على العامل مع الإتيان به مؤخراً أوجز و أخضر، و سرَّ إعادة الضمير مرَّة بعد مرة.

تقديم العبادة على الاستعانة

قلت: أراد تقديم العبادة ـــ و هي العمل ـــ على الاستعانة، فالعبادة لله و الاستعانة للعبد، فالله هو المعبود، و هو المستعان على عبادته، فإياك نعبد؛ أي إياك أريد بعبادتي، و هو يتضمن العمل الصالح الخالص، و العلم النافع الدال على الله، معرفة و محبة، و صدقا و إخلاصاً، فالعبادة حق الرب تعالى على خلقه، و الاستعانة تتضمن استعانة العبد بربه على جميع أموره، و هي القول المتضمن قسم العبد.

فكل عبادة لا تكون لله و بالله فهي باطلة مضمحلة، و كل استعانة تكون بالله وحده فهي خذلانٌ و ذل.

و تأمل علم ما ينفع العباد و ما يدفع عنهم كل واحد من هاتين الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية نفعاً و دفعاً و كيف تدخل العبد هاتان الكلمتان في صريح العبودية.

القرآن مداره على هذه الكلمة

و تأمل عِلم كيف يدور القرآن كلّه من أوّله إلى آخره عليهما، و كذلك الخلق، و الأمر و الثواب و العقاب و الدنيا و الآخرة، و كيف تضمّنتا لأجلّ الغايات، و أكمل الوسائل، و كيف أتى بهما بضمير المخاطب الحاضر، دون ضمير الغائب، و هذا موضوع يستدعي كتاباً كبيراً، و لولا الخروج عمَّا نحن بصدده لأوضحناه و بسطناه، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب: "مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين ".

ضرورة العبد لقوله {اهدنا الصِّراط المُستقيم }

ثم ليتأمل العبد ضرورته و فاقته إلى قوله { اهدنا الصِّراط المُستقيم } الذي مضمونه معرفة الحق، و قصده و إرادته و العمل به، و الثبات عليه، و الدعوة إليه، و الصبر على أذى المدعو إليه فباستكمال هذه المراتب الخمس يستكمل العبد الهداية و ما نقص منها نقص من هدايته.

و لما كان العبد مفتقراً إلى هذه الهداية في ظاهره و باطنه، بل و في جميع ما يأتيه، و يذره من: أنواع الهدايات التي يفتقر لها العبد أمور فعلها على غير الهداية علماً و عملاً و إرادة، فهو محتاج إلى التوبة منها و توبته منها هي من الهداية.

و أمور قد هُدي إلى أصلها دون تفصيلها فهو محتاج إلى هداية تفاصيلها.

و أمور قد هُدي إليها من وجهٍ دون وجهٍ، فهو محتاجٌ إلى تمام الهداية في كمالها على الهدى المستقيم، و أن يزداد هدى إلى هداه.

و أمور هو محتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.

وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها اعتقاداً صحيحاً.

و أمور يعتقد فيها خلاف ما هي عليه، فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد الباطل، و تُثبت فيه ضدّه.

و أمور من الهداية: هو قادر عليها، و لكن لم يخلق له إرادة فعلها، فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة.

و أمور منها: هو غير قادر على فعلها مع كونه مريد لها، فهو محتاج في هدايته إلى إقدار عليها.

و أمور منها: هو غير قادر عليها و لا مريد لها، فهو محتاج إلى خلق القدرة عليها و الإرادة لها لتتم له الهداية.

و أمور: هو قائم بها على وجه الهداية اعتقادا و إرادة، و علما و عملاً، فهو محتاج إلى الثبات عليها و استدامتها، فكانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات، و فاقته إليها أشد

الفاقات، و لهذا فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال على العبيد كلّ يوم و ليلة في أفضل أحواله، و هي الصلوات الخمسُ، مرات متعددة، لشدَّة ضرورته و فاقته إلى هذا المطلوب.

ثم بيَّن أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب و أهل الضلال، و هو اليهود، و النصارى و غيرهم.

فانقسم الخلق إذن إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية:

مُنعم عليه: بحصولها له و استمرارها و حظه من المنعم عليهم، بحسب حظه من تفاصيلها و أقسامها.

و ضالٌ: لم يُعطَ هذه الهداية و لم يُوفق لها.

و مغضوب عليه: عَرفها و لم يوفق للعمل بموجبها.

فالضال: حائد عنها، حائر لا يهتدي إليها سبيلا.

و المغضوب عليه: متحيّر منحرف عنها؛ لانحرافه عن الحق بعد معرفته به مع علمه بها.

فالأول المنعم عليه قائم بالهدى، و دين الحق علما و عملاً و اعتقادا و الضال عكسه، منسلخ منه علماً و عملاً.

و المغضوب عليه لا يرفع فيها رأسا، عارف به علماً منسلخ عملاً، و الله الموفق للصواب.

و لولا أن المقصود التنبيه على المضادة و المنافرة التي بين ذوق الصلاة، و ذوق السماع، لبسطنا هذا الموضوع بسطاً شافيا، و لكن لكلِّ مقام مقال، فلنرجع إلى المقصود.

عبودية التأمين و رفع اليدين

و شرع له التأمين في آخر هذا الدعاء تفاؤلاً بإجابته، و حصوله، و طابعاً عليه، و تحقيقاً له، و لهذا اشتد حسدُ اليهود للمسلمين عليه حين سمعُوهم يجهرون به في صلاتهم.

ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع تعظيما لأمر الله، و زينةً للصلاة، و عبودية خاصةً لليدين كعبودية لبقي الجوارح، و اتباعاً لسنَّة رسول الله صلى الله عليه و سلم فهو حليةُ الصلاة، و زينتها و تعظيمٌ لشعائرها.

ثم شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من رُكن إلى ركن، كالتلبية في انتقالات الحاجِّ، من مشعر إلى مشعر، فهو شعار الصلاة، كما أن التلبية شعار الحج،(مميز ليعلم أن سر الصلاة هو تعظيم الرب تعالى و تكبيره بعبادته وحده.)

****

يقول العلامة ابن كثير:

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ؛ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ؛ عَلَى حَمْدِ اللَّهِ، وَتَمْجِيدِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ

عَبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وقوتهم، وإلى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوْحِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَاثِلٌ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَتَثْبِيتَهُمْ عَلَيْهِ حتى يفضي بهم بذلك إِلَى جَوَازِ الصِّرَاطِ الْحِسِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جِوَارِ النَّبِيِّينَ والصديقين والشهداء الصالحين..

وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ لِئَلَّا يُحْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمُ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ.

انتهى[36]

****

(لقد جمع الله معاني القرآن في سورة الفاتحة، فقد اشتملت على تعظيم الله وحمده والثناء عليه، وهذا هو أصل العقيدة: الإيمان بالله والاعتقاد أن الله سبحانه، يتصف بكل كمال ويتزّه عن كل نقص.

ففي النصف الأول من الفاتحة ثناء على الله بما هو أهله.

وفي النصف الثاني دعاء بالتوفيق والاستقامة على الصراط المستقيم .

فكأن الفاتحة قسمان، قسم يتوجه العبد فيه بالثناء على الله، وقسم يدعو فيه ربه ويطلب لنفسه الصلاح والهدى.

وقد ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «يقول تعالى قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.. قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.. قال الله: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.. قال الله: مجّدني عبدي، وإذا قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.. قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

ولعل هذا الحديث الصحيح، يوضح سر اختيار هذه السورة المباركة، ليقرأها المؤمن سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة، أو ما شاء الله أن يردّدها كلّما قام يدعوه في الصّلاة.

---

[36] تفسير ابن كثير ط العلمية (1/ 57)

فكأنها شمسٌ تنير بضوئها كل شيء، وتبسط نورها في المؤمن فيزداد يقينا وإيمانا. وهي نشيد إلهي يردده المؤمن معترفا لله بالفضل، شاكرا له جميل نعمه، مستهديا إيّاه إلى الصراط المستقيم.

فالنصف الأول من السورة يتعلق بالعقيدة والفكر، والنصف الثاني يتعلق بالسلوك والعمل.

والمتتبع لأهداف القرآن الكريم، الواقف على مقاصده ومعارفه، يرى أنه جاء تفصيلا لما أجملته هذه السورة وحددته من صلاح العقيدة، واستقامة السلوك.

إنّ «الفاتحة» هي أمّ القرآن، ومن أجل ذلك حفلت بالأفكار الكبرى، التي تميّز بها دين الله، أي الإسلام، وهي أنه- عزّ اسمه- ربّ العالمين، الرحمن الرحيم،. وهو وحده الذي يختصّ بالعبادة، وهو وحده المستعان، وفي هذه الآية الخامسة نجد «إيّاك» وقد قدّمت على الفعلين «نعبد» و «نستعين».. وقد أشار أهل العلم إلى أن التقديم مؤذن بأنه، وحده، تقدّست أسماؤه، مخصوص بالعبادة، وهو المستعان لا يشاركه في ذلك غيره، وهذا كله مستفاد من هذه الطريقة في بناء الجملة، وما كان من «التقديم» الذي أشرنا إليه. وإني لأرى أن التقديم قد حقق أيضا غرضا أسلوبيا وهو الحفاظ على «النظم»، الذي يوفره ورود الآي على الميم والنون في أواخر الفواصل.

وقد تحقّق ضرب من التساوق البديع في تقديم «إيّاك» على الفعلين كما بيّنا، وفي ذلك كلّه اتّفاق في النّظم، يتحقق في جماع مواد هذه السورة: ثمّ ماذا؟

إن طول الآيات كلها قدر يكاد يكون متساويا في مادته وهذا ضرب من التوافق والانسجام يخدم هذا البناء المتساوق في مادّته ومن أجل هذا يعمد أهل التلاوة إلى الوقوف على قوله تعالى: أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ في الآية السابعة وقفة قصيرة، ليتحقّق نمط من التساوي في طول الآيات)[37].

***

ويقول العلامة السعدي رحمه الله:

فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: {اللَّهِ} ومن قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ {الْحَمْدُ} كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

---

[37] راجع الموسوعة القرآنية خصائص السور – سورة الفاتحة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية . بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } لأنه معرفة الحق والعمل به . وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فالحمد لله رب العالمين...ا.ه.[38]

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس المحتويات

مقدمة .....
نظرة موضوعية عامة على الفاتحة .....
استطرادات وهوامش وتفاصيل في تفسير الفاتحة .....
في الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .....
(بسم الله الرحمن الرحيم).....
(الحمد لله رب العالمين).....
بين الحمد والشكر .....
لطائف قرآنية:.....
" الرحمن الرحيم " .....
" ملك يوم الدين" .....
" إياك نعبد وإياك نستعين ".....
" اهدنا الصراط المستقيم ".....

38 تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 39)

".. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ".. .....

فائدة:.....

الخلاصة من تأمل سورة الفاتحة.....